

## العلماء والشعر

للعلماء شعر، ولم يمنعهم العلم وحفظ  
المتون وشرح النصوص من أن يبدعوا القافية،  
وبرسلوا الحرف الجميل لمقاصد عالية من  
التربية والتهديب والتوجيه، ومن أشهر من مرَّ  
معنا في تاريخ العلماء عبد الله بن المبارك،  
فقد كان شاعراً لبيباً حكيماً زاهداً مجاهداً  
منفقاً محدثاً، حتى يقول الذهبي: كان أصحابه  
يجتمعون في غيابه ويقولون: تعالوا نُعد مناقب  
عبد الله بن المبارك، وهو من أهل خراسان من  
مرو، زار الفضيل بن عياض عابد الحرمين في  
الحرم، فسمع بداعي الجهاد في سبيل الله جهة  
عمورية، فخرج من الحرم، وقال:

بُغِضُ الْحَيَاةِ وَخَوْفُ اللَّهِ أَخْرَجَنِي      وَبِيعُ نَفْسِي بِمَا لَيْسَتْ لَهُ ثَمَنًا  
إِنِّي وَزَنْتُ الَّذِي يَبْغِي لِيَعْدِلُهُ      مَا لَيْسَ يَبْغِي فَلَا وَاللَّهِ مَا اتَزَنَّا

وذهب إلى خراسان يعلم الجيش ويفتيهم في الليل، يقول أحد أصحابه:  
لمحت ابن المبارك ليلة ونحن نجاهد الروم في ليلة ماطرة فتركنا حتى نمنا  
فقام يصلي ويقراء: ﴿الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [الكاثر: ١] حتى أصبح وهو يبكي. ولما  
قام جاهد، فأرسل له الفضيل رسالة من الحرمين: إنك تأخرت علينا وإنك تركت  
الصلاة بالحرم بمئة ألف صلاة والإفتاء والتعليم، فرد عليه ابن المبارك:

يَا عَابِدَ الْحَرَمَيْنِ لَوْ أَبْصَرْتَنَا      لَعَلِمْتَ أَنَّكَ بِالْعِبَادَةِ تَلْعَبُ  
مَنْ كَانَ يَخْضِبُ خِدَهُ بِدُمُوعِهِ      فَتُحَوِّرُنَا بِدِمَائِنَا تَتَخَضَّبُ  
أَوْ كَانَ يُتَعَبُ خَيْلُهُ فِي بَاطِلٍ      فَخَيُولُنَا يَوْمَ الصَّبِيحَةِ تَتَعَبُ  
رَوْحُ الْبُحُورِ لَكُمْ وَنَحْنُ بِحُورُنَا      رَهْجُ السَّنَابِكِ وَالْغُبَارُ الْأَطْيَبُ

فمثل هذا الشعر الماتع والشعر القوي جمعه مع الحديث ومع الفقه والفتيا.  
وقد لا يمدح الشاعر كثيراً إذا تفرّد في حياته؛ لأنه تخصص للشعر، لكن أن  
يأتي عالم ويجمع مع الفقه والحديث والتفسير شعراً وأدباً جميلاً، فهذا يدل على  
النبوغ، ويدل على الريادة.

فهذا ابن المبارك يوصي طلابه وإخوانه:

إِذَا صَحِبْتَ قَوْمًا أَهْلًا وَدٍ      فَكُنْ لَهُمْ كَذِي الرَّحْمِ الشَّفِيقِ  
وَلَا تَأْخُذْ بِزَلَّةِ كُلِّ قَوْمٍ      فَتَبْقَى فِي الزَّمَانِ بِإِلَافِيقِ

يقول: لا تبحث عن العيوب، وتكون كشافاً لعثرات الناس، بل اجبر الخاطر  
واستر، واغفر الزلة وتغافل؛ فإنك سوف تظفر بإخوان إذا قبلتهم على ما فيهم.  
وكان يقول:

وَإِذَا صَحِبْتَ الدَّهْرَ فَاصْحَبْ مَا جِئْتَ  
 قَوْلُهُ لِلشَّيْءِ: لَا. إِنْ قُلْتَ: لَا  
 ذَا عَفَافٍ وَحَيَاءٍ وَكَرَمٍ  
 وَإِذَا قُلْتَ: نَعَمْ. قَال: نَعَمْ

فالأخ الموافق والصاحب الموافق دائماً يسعدك، ولا يُحبُّ الخلاف، تقول:  
 تنزل في هذا المكان؟ لا يقول: حياً وكرامةً. تقول: ما رأيكم أن تنام في هذا المكان؟  
 فيقول: أحسنت، رأيي سديد؛ لأنها أمور تقبل الاجتهاد وليست أمور عقائد يكون  
 الخلاف فيها كفراً، فما دامت أموراً اجتهادية فاقبل ولا تخالف؛ لأن بعض الناس  
 يحب الخلاف، يقول الشريف الرضي:

مَشْغُوفَةٌ بِالْخِلَافِ لَوْ أَقُولُ لَهَا:  
 يَوْمَ الْغَدِيرِ. لَمَّأَتْ: لَيْلَةَ الْغَارِ

فهو يحب الخلاف فقط وحب الاعتراض، ومن أبيات ابن المبارك التي  
 يقولها:

هَبَّتِ الرِّيحُ مِنَ الشَّرِّ قِ فِجَاءِ تُنِي بِرِيحِكَ  
 كَيْفَ أَنْسَاكَ وَرُوحِي صُنِعَتْ مِنْ جِنْسِ رُوحِكَ

إلى آخر تلك القائمة الجميلة من أبياته.

وأما العالم الآخر الذي أتى بعده وكاد يدركه، فهو الإمام الشافعي محمد بن  
 إدريس، وهو- على الإطلاق- من أذكى العلماء إن لم يكن أذكاهم، بعد الصحابة رضي الله عنهم  
 وأنبغهم وأبلغهم وأفصحهم غفر الله له وجمعنا الله به في الفردوس الأعلى.

يقول في قصيدة:

أَمْطِرِي لَوْلَا سَمَاءَ سَرَنْدِيبٍ (١)  
وَفِيضِي آبَارَ تَكْرُومِ تَبْرًا  
أَنَا إِنْ عِشْتُ لَسْتُ أَعْدَمُ خُبْرًا  
وَإِذَا مِتُّ لَسْتُ أَعْدَمُ قَبْرًا  
هَمَّتِي هِمَّةُ الْمُلُوكِ وَنَفْسِي  
نَفْسُ حُرِّ تَرَى الْمَذَلَّةَ كُفْرًا

معنى الأبيات: يا سماء سرنديب، أمطري ما شئت فأنا لا أريد الجواهر والدرر، وفيضي آبار تكرر تبرًا، أي: فيضي ما شئت من هذا الذهب، لا أريده. وأنا يكفيني رغيث وقبر إذا مت أدفن فيه، فهمتي عالية مثل همة الملوك، مثل همة الأسود ترى المذلة كفرًا، هذه فلسفته في الحياة، وهو كاد أن يكون من أشعر الشعراء، لكنه توجه إلى العلم والتفسير والفقه والحديث، حتى يقول:

وَلَوْلَا الشِّعْرُ بِالْعُلَمَاءِ يُزْرِي  
لَكُنْتُ الْيَوْمَ أَشْعَرَ مِنْ لَبِيدٍ

يقصد: لبيد بن ربيعه الشاعر المشهور من بني عامر بن صعصعة، الذي وفد وافدهم على الرسول فمدح الرسول ﷺ، وقالوا: أنت خيرنا وأفضلنا وابن أفضلنا وسيدنا. فقال: «أيها الناس! قولوا بقولكم أو ببعض قولكم ولا يستدرجكم الشيطان».

فلبيد هذا من أشعر الشعراء على كل حال، وقومه بنو عامر بن صعصعة وفدوا على النعمان بن المنذر، وكان مستشار النعمان بن المنذر الربيع بن زياد العبسي، وكانت بين عيس وبين بني عامر بن صعصعة أزمة وسوء تفاهم وعداوة، فأوغر الربيع العبسي صدر النعمان بن المنذر على بني عامر، وقال: كل القبائل استقبالهم إلا قبيلة بني عامر؛ لأنهم ينالونك ويؤذونك. وهذا المجلس سوء أوغر صدره، فأنت القبائل فقال النعمان للوفود: أدخلوهم. فدخلوا إلا وفد عامر بن صعصعة قال: احجبوهم؛ لأنه أوغر صدره مستشاره الوزير العبسي الربيع بن زياد، فرجعوا إلى رحالهم مكسوفي الحال وهو معهم غلاماً ما زال صغيراً، أعني

(١) جزيرة سرنديب التي يستخرج منها الأحجار الكريمة والمجوهرات والدرر.

ليبد بن ربيعة، فقالوا: رجعنا من عند الملك وطررنا. فقال: أدخلوني أنا غداً عليه. ثم بدأ يرتجز، قالوا: نحن عجزنا وأنت تقدر؟ قال: أدخلوني غداً عليه، اتركوا الأمر لي. قال سيدهم: إن كان نام فليس بصاحبنا - لأن الحر إذا اهتم بأمر لم ينم بليل - وإن كان يترفض، كما تترفض الحية على الرمضاء، فاعرفوا أنه صاحبنا يستطيع أن يدخل. فلمحوه بالليل فإذا هو يتقلب، ينام قليلاً على اليمنى ثم يميل على الجهة اليسرى، فأخبروا سيدهم فقال: هو صاحبنا. فطُيِّبوه وألبسوه لباساً أبيض وعمموه ومشى معهم في الوفد، وقال: فقط اتركوني على البساط. ثم أخذ يتسلل بين الناس، حتى وقف قبل النعمان، قال النعمان: من أنت؟ قال - وفي أولها -:

أَكَلُ يَوْمٍ لِمَتِّي مُقَرَّعُهُ      إِنَّ بُعَيْدَ الضِّيقِ يَأْتِيكَ السَّعَةُ  
نَحْنُ بِنُو أُمِّ الْبِنَيْنِ الْأَرْبَعَةُ      وَمَنْ خِيَارِ عَامِرِ بْنِ صُغَّعَةَ  
الضَّارِبُونَ الْهَامَ تَحْتَ الْخَيْضَعَةَ      وَالْمُطْعَمُونَ الْجَفْنَةَ الْمُدْعَعَةَ

الجفنة المددعة: الجفنة الكبيرة عليها الثريد واللحم والبر.

وقال الأصمعي: الخيضة: الجلبة، إذا اشتدت المعركة وازدحمت الصفوف، أي: نضرب بالسيوف. ثم قال هجاءً مرأً في الربيعة بن زياد وسبه وكرهه النعمان فيه، فقال النعمان للربيعة بن زياد: اخرج. قال: افترى عليّ. قال: قد قيل ما قيل إن صديقاً وإن كذِباً، يعني قول الشاعر:

قَدْ قِيلَ مَا قِيلَ إِنْ صِدْقاً وَإِنْ كَذِباً      فَمَا اعْتِدَارُكَ مِنْ قَوْلِ إِذَا قِيلَا

فعلا نجم ليبد في تلك المرحلة وهو شاعر - بلا شك - مجيد، حتى دخل الإسلام وأسلم، ثم تاب من قول الشعر ونذر نذراً إن قال بيتاً أن يُعتق رقبة، حتى إنه في سكرات الموت قال أربعة أبيات فأمر أن تُعتق أربع رقاب، وهو الذي يقول:

الْحَمْدُ لِلَّهِ إِذْ لَمْ يَأْتِنِي أَجْلِي حَتَّى اكْتَسَيْتُ مِنَ الْإِسْلَامِ سِرْبًا لَا

أما شعر الشافعي فكان أكثره في النصائح وفي التوجيه، وهو الذي يقول  
لأحمد بن حنبل:

تَعَمَّدَنِي بِنُصْحِكَ بِأَنْفِرَادٍ وَجَنَّبَنِي النَّصِيحَةَ فِي الْجَمَاعَةِ  
فَإِنَّ النَّصْحَ بَيْنَ النَّاسِ نَوْعٌ مِنَ التَّوْبِيخِ لَا أَرْضَى اسْتِمَاعَهُ  
فَإِنْ خَالَفْتَنِي وَعَصَيْتَ أَمْرِي فَلَا تَجْرَعُ إِذَا لَمْ تُعْطَ طَاعَهُ  
أَحِبُّ الصَّالِحِينَ وَلَسْتُ مِنْهُمْ لَعَلِّي أَنْ أُنَالَ بِهِمْ شَفَاعَهُ  
وَأَكْثَرُهُ مَنْ تَجَارَتْهُ الْمُعَاصِي وَلَوْ كُنَّا سَوَاءً فِي الْبِضَاعَةِ

ومن هذه الأبيات الجميلة الخفيفة كثير.

وهو يفسف الكرم، فيقول: الكريم تُغَطِّي عيوبه. ولذلك فإن السخي الجواد  
يُسامحه الناس بزلاته:

يُغَطِّي بِالسَّمَاخَةِ كُلَّ عَيْبٍ وَكَمْ عَيْبٍ يُغَطِّيهِ السَّخَاءُ  
وهو من قصيدة طويلة يقول فيها:  
أَمَا وَاللَّهِ مَا فِي الْعَيْشِ خَيْرٌ وَلَا الدُّنْيَا إِذَا ذَهَبَ الْحَيَاءُ  
إِذَا لَمْ تَخْشَ عَاقِبَةَ اللَّيَالِي وَلَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعِ مَا تَشَاءُ  
يُغَطِّي بِالسَّمَاخَةِ كُلُّ عَيْبٍ وَكَمْ عَيْبٍ يُغَطِّيهِ السَّخَاءُ

حتى يذكر الجاحظ وغيره من الأدباء أن السخي تتحول ذنوبه بين الناس  
حسنات. فلكرمه وجوده على الناس وسخائه إذا أكثر من الكلام قالوا: سبحان  
الذي أعطاه الفصاحة! وإذا سكت وكان عيباً قالوا: سبحان الله! كيف أعطاه الله

الحكمة والصمت. وإذا لبس جديداً، قالوا: سبحان الله! يجب أن يرى أثر نعمة ربه عليه. وإذا لبس قديماً، قالوا: سبحان الله! حتى اللباس تواضع فيه. وإذا كان عجولاً قالوا: سبحان الله! جاداً مثل السيف بتار. وإذا كان بطيئاً قالوا: كالجمل راسخاً.

أما البخيل فيحولون محاسنه إلى خسائر، فإذا كان صموتاً، قالوا: سبحان الله! أصابه الله بالعي، الله ~~ببخل~~ خذله حتى في الكلام فلا يتكلم. وإذا تكلم قالوا: كلامه هذر بلا فائدة. وإذا لبس جديداً، قالوا: أحشفاً وسوء كيلة؟ وإذا لبس قديماً، قالوا: سبحان الله! أتبلي بمصيبتين: مصيبة البخل، ومصيبة هذه البهذلة وهذه الثياب الممزقة. وإذا كان عجولاً، قالوا: سبحان الله! طائش ما أخف عقله! وإذا كان ثقيلاً، قالوا: سبحان الله! ما أبرد أعصاب هذا الرجل وأثقل دمه!

وعند الترمذي: «السخي قريب من الله قريب من الجنة قريب من الناس، والبخيل بعيد من الله بعيد من الجنة بعيد من الناس».

وممن يُعرف من الشعراء المتأخرين، بل هو عالم شاعر واستحسن شعره وتابعت كثيراً من قصائده، ابن القيم - تلميذ ابن تيمية - له أبيات خاصة الميمية، يقول فيها:

|   |  |
|---|--|
| أَمَّا وَاللَّيْلِ شَقُّ الْقُلُوبِ وَأَوْ          | جَدَ الْمُحَبَّةِ فِيهَا حَيْثُ لَا تَنْصَرِمُ |
| وَحَمَلَهَا جُهْدَ الْمُحِبِّ وَإِنَّهَا            | لَتَفْعُزُّ عَنِ حَمْلِ الْقَبِيصِ وَيَعْلَمُ  |
| لَأَنْتُمْ عَلَى بُعْدِ الدِّيَارِ وَقُرْبِهَا      | أَحَبَّتْنَا إِنْ غَبْتُمْ أَوْ حَضَرْتُمْ     |
| سَلُّوا نَسَمَاتِ الرِّيحِ كَمْ قَدْ تَحَمَلْتِ     | مُحَبَّةً صَبَّ حُبُّهُ لَيْسَ يُكْتَمُ        |
| وَكُنْتِ إِذَا مَا اشْتَدَّ بِي الْحُبُّ وَالْجَوَى | وَكَادَتْ عُرَى الصَّبْرِ الْجَمِيلِ تَقْصُمُ  |
| أَعْلَلُ نَفْسِي بِالتَّلَاقِي وَقُرْبِهِ           | وَأَوْهَمُهَا الْكِنْهَاتُ تَتَوَهَّمُ         |



وهذا من أجمل ما يقوله شاعر.

وشعر العلماء درجات، فبعضهم يجيد إلى الدرجات الأولى، وبعضهم يتوسط،  
وبعضهم يضعف، ومنهم ابن الوردى المحدث الذي يقول:

تَسْتَرْتُ مِنْ دَهْرِي بِظِلِّ جَنَاحِهِ      فَعَيْنِي تَرَى دَهْرِي وَلَيْسَ يَرَانِي  
فَدَوُّ تَسْأَلِ الْأَيَّامِ عَنِّي مَا دَرْتُ      وَأَيْنَ مَكَانِي مَا عَرَفَنَ مَكَانِي

والأرجاني شاعر، والأرجان خففها المتنبى لما قال: أَرْجَان. لما ذهب ومر  
بالشعب وقال:

مَعَانِي الشَّعْبِ طَيِّباً فِي الْمَعَانِي      بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ  
وَلَكِنِ الْفَتَى الْعَرَبِيَّ فِيهَا      غَرِيبُ الْوَجْهِ وَالْيَدِ وَاللِّسَانِ  
مَلَاعِبُ جِنَّةٍ لَوْ سَارَ فِيهَا      سُلَيْمَانُ لَسَارَ كَالْأَرْجَانِ

والأرجاني عالم محدث كبير، يقول من قصيدة جليلة:

أَعَيْنِي كُفّاً عَن فُؤَادِي فَإِنَّهُ      مِنَ الظُّلْمِ سَعْيِ اثْنَيْنِ فِي قَتْلِ وَاحِدٍ

يقول لعينيه: أنتما اثنتان؛ فكفا عن قلبي؛ لأنه واحد فكيف تجتمعان على  
قلبي تقتلانه؟ هذا من جميل ما يقول العلماء في أشعارهم.

ومن الشعراء ابن حزم الظاهري، كان يقول الشعر الجميل، حتى إنه يقول:

إِنِّي لَشَمْسٌ فِي السَّمَاءِ مُضِيئَةٌ      وَلَكِنِ عَيْبِي أَنْ مَطْلَعِي الْغَرْبُ

لأنه من الأندلس، يقول: أنا شمس، لكن مشكلتي أنني ما جئت من الشرق، بل  
جئت من الغرب. وقد ذهب هو وابن عبد البر المحدث فرأيا منظراً جميلاً، فقال  
ابن عبد البر: لا تغتر- يا ابن حزم- بكل ما ظهر من الجمال؛ فإنه قد يكون تحته  
أمر مخبوء ليس بجميل. فقال:

أَلَمْ تَرَ أَنِّي ظَاهِرِي وَأَنْبِي عَدَى مَا بَدَأَ حَتَّى يُقْوَمَ دَلِيلُ

يقول: أنا أشغل بالظاهر؛ لأنه يأخذ من ظاهر النص، فكل جمال ظاهري يقول: الأصل فيه جميل؛ لأن مذهبي الظاهر، فأتعامل بالظاهر.

ودخلوا على ابن تيمية، وهو في الحمى مريض، قالوا: ماذا تشكي يا أبا العباس؟ قال:

تَمُوتُ النَّفُوسُ بِأَوْصَابِهَا وَكَلِمٌ يَنْدِرُ عَوَادُهَا مَا بِهَا  
وَمَا أَنْصَفَتْ مُهْجَةً تَشْتَكِي أَذَاهَا إِلَى غَيْرِ أَحْبَابِهَا

وهذا مثل قول المتنبي:

إِنْ كَانَ سَرُّكُمْ مَا قَالَ حَاسِدُنَا فَمَا لِحَرْجٍ إِذَا أَرْضَاكُمْ - أَلَمْ

ويُشَدُّونَ فِي هَذَا الْمَعْنَى قَوْلَ الْقَائِلِ:

وَيَضْبُحُ مِنْ سِوَاكَ الْفِعْلُ عِنْدِي وَتَفْعَلُهُ فَأَحْسِنُ مِنْكَ ذَاكَ

استشهد به بعض المحدثين على قصة رسول الهدى ﷺ الذي رواه ابن ماجة وذكره صاحب المنتقى جد ابن تيمية في (منتقى الأخبار) «أنه ﷺ أتى يَنْحَرُ النَّوْقَ فَتَقَدَّمَتْ إِلَيْهِ أَيْتَاهَا يَنْحَرُ أَوْلًا». كل ناقة تقدم صدرها قبل الأخرى أيتها ينحر أَوْلًا.





## الرجاء

الرجاء في رحمة ﷺ هو سلم العبودية وهو  
الحبل الممدود بينك وبين رب العباد ﷺ، وإذا  
لم ترجه ﷺ فمن ترجو؟ فإنه لا يحقق مطالبك  
ولا يسهل الصعوبات ولا يذك الأزمات إلا هو  
وحده ﷺ، وقد التجأ كثير من الأولياء والعلماء  
والشعراء والأدباء في تباريح تنبعت من قلوبهم،  
الزمخشري أتى إلى البيت وصلى ركعتين وقال -  
وقد جاور بيت الله ﷺ :-

يَا مَنْ يَرَى مَدَّ الْبُعُوضِ جَنَاحَهُ      فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ الْأَيْلِ  
وَيَرَى نِيَاطَ عُرُوقِهَا فِي نَحْرِهَا      وَالْمُخَّ فِي تِلْكَ الْأَعْظَامِ النَّحْلِ  
أَغْضُرُ لِعَبْدٍ تَابَ مِنْ فَرْطَاتِهِ      مَا كَانَ مِنْهُ فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ

وعلم بهذا أن الله ﷻ يدعى في كل طلب ويؤمل، وبحسب ظنك بربك يحقق لك ما ظننت، يقول: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ». فمن ظن بأن يفرج الكرب ويجل الأزمات ويكشف العلمات حقق الله ﷻ ظنه، ومن ظن بالله السوء فعليه دائرة السوء، ولذلك يقول السهيلي الأندلسي:

يَا مَنْ يَرَى مَا فِي الضَّمِيرِ وَيَسْمَعُ      أَنْتَ الْمَعْدُ كُلُّ مَا يُتَوَقَّعُ

فالعدة والذخر عند عقلاء العالم هو الله وحده ﷻ، ولذلك التجؤوا له في الشدائد، حتى قلت في أبيات:

لَكَ الْحَمْدُ يَا رَحْمَنَ مَا هَلْ صَيَّبُ

في قصيدة اسمها العظيمة وأسأل الله أن يجعلها في ميزان حسناتي؛ لأن الله يحب المدح.

الأسود بن سريع شاعر أتى إلى الرسول ﷺ فقال: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَظَّمْتُ قَصِيدَةً مَدْحًا فِي رَبِّي. قَالَ ﷺ: أَمَا إِنْ رَبُّكَ يُحِبُّ الْمَدْحَ». ولذلك يقول في صحيح مسلم: «وَلَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللَّهِ». ولذلك مدح نفسه، حتى حسان ﷺ يقول لقريش الجاهلة التي تحارب رسول الله ﷺ:

رَعِمَتْ سَخِيلَةٌ أَنْ سَتَغْلِبُ رَبِّهَا      فَلْيَغْلِبَنَّ الْمُغْلِبُ الْغَالِبَ

قالوا فيما يروى عن رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ شَكَرُ بَيْتِكَ يَا حَسَّانُ». فمن هذا

المنطلق قلت:

لَكَ الْحَمْدُ يَا رَحْمَنُ مَا هَلْ صَبَبُ  
 لَكَ الْحَمْدُ مَا هَاجَ الْغَرَامُ وَمَا هَمَّا  
 قَوْلَاهُ تَوَّضَعْنَا مِنَ الدَّمْعِ مَقْلَةً  
 وَسِرْنَا عَلَى الْأَجْفَانِ تَشْوَى وَجُوهُنَا  
 لَمَّا بَلَّغُوا مَا تَسْتَحِقُّ وَقَصَرُوا  
 وَمَاتَابَ- يَأْمَنُ يَقْبَلُ التَّوْبَ- مُذْنِبُ  
 الْغَمَامُ وَمَا غَنَى الْحَمَامُ الْمُطْرَبُ  
 أَحَادِيثُ حُبِّ فِي عَمَلِكَ تَرْتَبُ  
 عَلَى النَّارِ تَشْوَى أَوْ عَلَى الْجَمْرِ تُسْحَبُ  
 وَلَوْ حَاوَلُوا فِيهَا أَرْدَتْ وَرَتَّبُوا

ويقول أحدهم:

إِلَيْكَ وَإِلَّا لَا تُشَدُّ الرُّوَاقِبُ  
 وَمِنْكَ وَإِلَّا فَالْمُؤْمِلُ خَائِبُ  
 وَفِيكَ وَإِلَّا فَالْغَرَامُ مُضِيعُ  
 وَعَنْكَ وَإِلَّا فَالْمُحَدِّثُ كَاذِبُ

فالرجاء أن ترجو الله ﷻ أن يُحقق لك ما أردت، فتوبتك لا تحصل إلا بتوفيق من الله، ورزقك لا يتعين ولا يتحقق لك إلا بتسهيل من الله، ونجاحك لا يتحقق، ولن يكون إلا إذا فتحت الطريق مع الله ﷻ، حتى إن بعض الشعراء يقول:

وَإِنِّي لِأَرْجُو اللَّهَ حَتَّى كَأَنَّي  
 أَرَى بِجَمِيلِ الظَّنِّ مَا اللَّهُ صَانِعُ

أي: كأن الأمور مكشوفة أمامي من حسن الظن به ﷻ حتى المؤمنون يقولون:  
 ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]. فهم سلموا له ﷻ فقالوا: صدق الله، بأن الأحزاب سوف يأتون إلينا، وسوف تضيق بنا الضوايق، ولكن سوف يفرجها الله ﷻ، وسوف يأتي النصر والفتح وصدق الله ورسوله. وأما المنافقون وأهل الشك والريبة والمرض، فقالوا: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢]. تبت أيديهم ولعنوا بما قالوا.

وهنا إذا علمت ذلك فعليك أن تتجه إليه وحده ﷺ، يقول أبو يزيد البسطامي:  
عِشْتَ مَعَ النَّاسِ أَرْبَعِينَ سَنَةً فَوَجَدْتَهُمْ أَمْوَاتًا غَيْرَ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ،  
فَكَبُرَتْ عَلَيْهِمْ أَرْبَعُ تَكْبِيرَاتٍ وَتَفَضَّتْ يَدَيَّ مِنْهُمْ، وَجَدْتَهُمْ لَا يَقْطَعُونَ وَلَا يَصِلُونَ  
وَلَا يَمِيتُونَ وَلَا يَحْيُونَ، وَلَا يُقَرَّبُونَ وَلَا يُبْعَدُونَ، وَلَا يَرْفَعُونَ وَلَا يُعْرَضُونَ وَلَا يُدَلُّونَ وَلَا  
يَنْفَعُونَ وَلَا يَضُرُّونَ. هَذِهِ هِيَ حَقِيقَةُ النَّاسِ فَالِنَافِعِ الضَّارِّ وَالْمَحْيِيِّ الْمَعْرُوفِ هُوَ اللَّهُ  
وَحْدَهُ ﷻ، وَلِذَلِكَ يَقُولُ:

لَا تَسْأَلُنْ بُنَيَّ آدَمَ حَاجَةً      وَسَلِ الْبَنِيَّ أَبُوبِهِ لَا تُحْجَبُ  
اللَّهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ      وَتَرَى ابْنَ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

ولذلك يقول ﷺ: «مَنْ لَمْ يُسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ». إذا تركت دعاء الله  
غضب عليك، وإذا أكثرت من دعاء الله والإلحاح عليه أحبك الله وقربك وأعطاك،  
حتى في الترمذي يقول: «يُسْأَلُ أَحَدُكُمْ حَاجَتَهُ عَلَيْهِ، وَحَتَّى مَلْحَ الطَّعَامِ». حتى  
إن ابن رجب ذكر أن في التوراة: أسأله حتى عجيب نوابكم، وحتى ملح طعامكم،  
وحتى يصلح شسع النعل. كل الأمور لا يصلحها ولا يهيئها إلا الله ﷻ ولذلك هو  
خير حافظاً وهو أرحم الراحمين.

ويقولون: إن معاذ الرازي صعد المنبر يريد أن ينصح الناس:

وَعَيْرُ تَقِي يَأْمُرُ النَّاسَ بِالتَّقَى      طَبِيبٌ يُدَاوِي النَّاسَ وَهُوَ عَلِيلٌ

ثم قال: عليكم بالأعمال الصالحة. قال الناس: فإن لم تكن أعماله صالحة؟  
قال: حسنات مكفرة. قالوا: فإن لم تكن حسنات؟ قال: مصائب تأتيكم. قالوا:  
فإن لم تكن مصائب تكفر ذنوبنا؟ قال: شفاعة سيد الخلق ﷺ. قالوا: فإن لم  
تكن شفاعة؟ قال: رحمة أرحم الراحمين. فضج الناس بالبكاء.

وله كلمات يقول فيها: إن الله لما أرسل موسى وهارون -عليهما السلام- إلى فرعون قال: ﴿فَقُولَا لَهُ، قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤]. قال: سبحانك - يا ربي - هذا فعلك مع من يقول: أنا ربكم الأعلى. فكيف بفعلك مع من يقول في سجوده: سبحان ربي الأعلى! فتحن نرجوك أن ترحمنا وأن ترفق بنا؛ لأننا نحن نقول في سجودنا: سبحان ربي الأعلى. وهذا من أحسن الكلمات.

فالرجاء يسوق إلى رحمة ﷻ، فإذا خففته ورجوته وأحببته كنت مستخدماً، كان عندك سوطه وكان عندك قائد يقود وسائق يسوق، فالسائق الذي يسوق هو الخوف والذي يقودك الرجاء، والمحبة الدابة وقيل: السوط الخوف، والقائد هو الرجاء والسائق الحب.

لَهَا أَحَادِيثٌ مِنْ ذِكْرِكَ تَشْغُلُهَا  
عَنِ الطَّعَامِ وَتُلْهِيَهَا عَنِ الزَّادِ  
لَهَا بِوَجْهِكَ نُورٌ تَسْتَضِيءُ بِهِ  
وَمِنْ حَدِيثِكَ فِي أَعْقَابِهَا حَادٍ  
إِذَا تَشَكَّتْ كِلَالَ السَّيْرِ أَسْعَفَهَا  
شَوْقُ الْقُدُومِ فَتُحْيَا عِنْدَ مِيعَادِ

فهو الرجاء برحمته ﷻ، يقول بعض السلف: سيروا على رجاء رحمة الله ﷻ. قال أحد طلاب هذا العالم: كيف نسير، وقد ذهب القوم على خيول مُضْمَرَّةٍ وَبَقِينَا نحن على حَمِيرٍ مُعَقَّرَةٍ! أي: إن السلف لهم أعمال ولهم مواقف صحابة وتابعين ﷺ من النصر والإنفاق وبذل الخير، والدعوة والجهاد والعلم، فهم على خيول مُضْمَرَّةٍ، قال: والله لتصلن بالقوم؛ ما دامت على هذا الطريق؛ لأنه مثلما قال الشافعي:

أَحِبُّ الصَّالِحِينَ وَكُنْتُ مِنْهُمْ  
لَعَلِّي أَنْ أُنَالَ بِهِمْ شِعَاعَهُ  
وَأَكْرَهُ مَنْ تَجَارَتْهُ الْمَعَاصِي  
وَلَوْ كُنَّا سِوَاءَ فِي الْبِضَاعَةِ

فحبهم والعمل بشيء ولو قليل من السنة وتمشي على الطريق تصل، المهم ألا تخرج على الرصيف، بل تمشي على الطريق لتصل، نعم تأتيك كدمات؛ شوكة في الطريق، لكنك في الأخير سوف تصل ما دمت على الطريق المستقيم.

المتنبي في أمور الدنيا لما ذهب إلى سيف الدولة تعب في الطريق وأضنى راحلته، وفي الأخير قال سيف الدولة: كأنك تعبت. قال:

جَزَى اللَّهُ الْمَسِيرَ إِلَيْكَ خَيْرًا وَإِنْ تَرَكَ الْمَطَايَا كَالْمَزَادِ

يقول: الله يجزي المسير خيراً، هو بشر سافر إلى بشر، ولو كان ترك مطايانا تركها مثل المزاد، أي: مثل القرب البالية. فيقول: ما عليه التعب. فكيف إذا كان التعب لله؟ وكيف إذا كان السهر له ﴿سورة﴾ وكيف إذا كان الجوع في سبيله؟!

عمارة اليمني سافر من مكة إلى الحاكم المعز الفاطمي في مصر، فانظر كيف يسافر بشر إلى بشر، ضعيف على ضعيف، قال:

الْحَمْدُ لِلْعَيْسِ بَعْدَ الْحَمْدِ لِلذَّمِّ حَمْدًا يُزِيلُ شُكُوكَ الظَّنِّ وَالنُّهْمِ  
فَهَلْ نَرَى الْبَيْتَ أَنِّي بَعْدَ فُرْقَتِهِ مَا سِرْتُ مِنْ حَرَمٍ إِلَّا إِلَى حَرَمٍ  
حَيْثُ الْخِلَافَةُ مَضْرُوبٌ سُرَادِقُهَا تَجْرِي الْبَغِيضِينَ مِنْ ظُلْمٍ وَمِنْ ظُلْمٍ  
وَلِلْخِلَافَةِ أَنْوَارٌ مُقَدَّسَةٌ تَبْنِي الْحَبِيبِينَ مِنْ حُكْمٍ وَمِنْ حُكْمٍ

وهو الذي يقول في المعز:

وَإِذَا لَثَمْتُ يَمِينَهُ وَخَرَجْتُ مِنْ أَبْوَابِهِ لَثَمْتُ الْمُلُوكَ يَمِينِي

فهؤلاء تقطعوا في رجاء أناس من العباد من الملوك ومن السلاطين، ومن الأمراء ومن الوزراء، ومن الوجهاء ومن الأغنياء ومن الأثرياء فكيف من قصد رب الأرض والسموات ﴿سورة﴾؟!

ذهب أبو تمام إلى عبد الله بن طاهر بن حسين في خراسان فضل في الطريق وضاع بالراحلة وضيع رفقة له - أي: وفداً - ذات اليمين وذات الشمال حتى بلغ قومس، وقومس هذه بلدة في إيران، فجاء بقصيدة هي من أجمل القصائد

وأحسن قصيدة مُدِحٍ فيها جواد في تلك الحقبة، بعدما ضاع وأتى الصباح وكُلَّت  
الرحل، يقول أبو تمام:

فِي قَوْمَسٍ صَحْبِي وَقَدْ وَخِدْتُ      أَيَدِي الْمَطِيٍّ مَعَ الْمَهْرِيَّةِ الْقُودِ

يقول: تعبت - والله - الإبل وتعبت الخيول.

أَمْطَلَعَ الشَّمْسِ تَبْغِي أَنْ تَوْمَ بِنَا      فَكُلْتُ: كَلًّا، وَلَكِنْ مَطَلَعَ الْجُودِ

يقول: قطعنا في السفر، فتريد أنت مطلع الشمس، حيث ذهب ذو القرنين،  
ثلاث ليالٍ وهم ضائعون. ويقول: أنا أريد أن أذهب إلى عبد الله بن طاهر بن  
حسين، حيث يطلع الجود وشمس الجود هناك تطلع. وهذا من أحسن الكلام،  
وقيل: إنه انتحل البيت من مسلم بن الوليد الشاعر الذي يقول:

أَمْطَلَعَ الشَّمْسِ تَبْغِي أَنْ تَوْمَ بِنَا      فَكُلْتُ: كَلًّا، وَلَكِنْ مَطَلَعَ الْكَرَمِ

مدح فيه أميراً قبل، فتصرف فيه أبو تمام، وأبو تمام شاعر مطبق لا يُعلى  
عليه في الشعر.





## الشيب والهرم

الشيب والهرم مرحلة من مراحل العمر، يمر بها الإنسان، ويصل إلى هناك وقد شجن بالتجارب والأمثال والحكم، وقد عرف الدهر وعرف الناس وعرف الأيام، بعضهم يصل إلى ذلك العمر وبعضهم يُقَدِّمُ له وينتهي في شبابه، لكن الحديث عمن وصل إلى سن الشيب وسن الهرم، حتى يقول زكريا عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤]. انظر كلمة: اشتعل، كأنك أحرقت شيئاً من النبات، فتغير لونه من النار، حتى يقول ابن دريد في شيبه:

يَا ظَبِيَّةَ أَشْبَهَ شَيْءٌ بِأَلْمَهَا      تَرَعَى الْخُزَامَى بَيْنَ أَشْجَارِ النَّقَى  
أَمَا تَرَى رَأْسِي حَاكِي لَوْنُهُ      غُرَّةٌ صُبْحَ تَحْتِ أَذْيَالِ الدُّجَى  
وَاشْتَعَلَ الْمَبِيضُ فِي مِسْوَدِهِ (١)

هذا هو أمر الشيب الذي ينتظره الإنسان، ولذلك في الحديث: «إِنَّ اللَّهَ يَسْتَحْيِي أَنْ يُعَذِّبَ ذَا شَيْبَةٍ فِي الْإِسْلَامِ». هذا هو **مِسْوَدٌ** يستحيي، فكيف لا يستحيي العبد منه، وسار على ذلك الأدباء، فمنهم من شكا من السبعين، ومنهم من شكا الثمانين، ومنهم من قال:

وَإِنْ أَمْرًا قَدْ سَارَ سِتَيْنَ حَجَّةً      إِلَى مَنْهَلٍ مِنْ وَرْدِهِ لَقَرِيبُ

يقول: قُرْبٌ مِنْ مَشَى سِتَيْنَ، فكيف بالذي مشى ثمانين!

دخل عوف بن محلى إلى معاوية **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، فقال: ادْنُ مِنِّي. فَدَنَا مِنْهُ يَتَكَلَّمُ، قَالَ: مَا تَسْمَعُنِي؟ قَالَ:

إِنَّ الثَّمَانِينَ وَبُلِّغْتُهَا      قَدْ أَخَوَجْتُ سَمْعِي إِلَى تُرْجَمَانِ

في قصيدة طويلة، وقيل: إنما قالها عند المأمون، لا عند معاوية **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**. وهذا الذي أرجحه مع بعض الأدباء؛ لأن عوف بن محلى إنما عاش في عهد المأمون، وعبد الله بن طاهر بن حسين، وبين عبد الله بن طاهر بن حسين وبين معاوية ما يقرب من (١٠٠ سنة) أو يزيد.

جاء شيخ كبير بلغ الثمانين، وإذا أبناؤه معه ينامون معه في بيته؛ لأنهم مسافرون، فاحتاجوا أن يناموا في مكان واحد، أتوا ينامون وإذا هو يسعل ويتأوه ويزفر ويندب ويتململ، قالوا: ما هذا الأئين؟ فجلس ونظم قصيدة من أروع القصائد عند العرب، حتى إن ابن الجوزي وأهل التاريخ ذكروا جزءاً منها يقول:

(١) المبيض: الشيب الأبيض في الرأس.

قَالُوا: أَنْيُكَ طُولُ اللَّيْلِ يُسْهَرُنَا      فَمَا الَّذِي تَشْتَكِي؟ 5. قُلْتُ: الثَّمَانِيْنَا

يقولون: كان في شبابه مُعدماً فقيراً وجمع وجمع وحاول أن يجمع المال وما تيسر المال، فأقيل عليه المال لما قرب الثمانين، قال:

مَلَكَتُهُ بَعْدَمَا جَاوَزْتُ سَبْعِينَ      مَا كُنْتُ أَرْجُوهُ إِذْ كُنْتُ عَشْرِينَ

تَمَرُّبِنَا بِنَاتِ التُّرِكِ رَهِيْفَةً      مِثْلُ الطَّبَاءِ عَلَى كُتْبَانَ يُبْرِينَا

قَالُوا: أَنْيُكَ طُولُ اللَّيْلِ يُسْهَرُنَا      فَمَا الَّذِي تَشْتَكِي؟ 5. قُلْتُ: الثَّمَانِيْنَا

فالدنيا لا يستقيم لها حال، فتجد الشيخ الكبير يقبل له المال وقد ذهب الشباب، وتجد بعض المرضى ذا ثروة، وبعض الشباب معدم فقير، ومن صح بصره ضعفاً سمعه، فلا قرار إلا في جنات النعيم بجوار الواحد الأحد ﷻ، حتى إن زهيراً في الجاهلية يقول:

سَمِمْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ      ثَمَانِينَ حَوْلًا - لَا أَبَا لَكَ - يَسَامُ

يقول: من يعيش ثمانين سنة في الحياة يسأم من الحياة. وخاصة الحياة التي ليس فيها عبادة ولا قراءة ولا معرفة تكون حياة مملولة مكررة، اليوم مثل أمس، لكن طالب العلم والعابد دائماً يسمع قصة وموعظة وفائدة، ويقدم عملاً صالحاً ويقدم نافلة ويقدم خلقاً كريماً ويقدم تاريخاً مجيداً، فتجد عمره يتجدد وعمره وتتجدد الأيام، لكن تصور اليأس أو المحروم من طاعة الله ﷻ تضيق الدنيا في عينيه؛ لأن الواحد الأحد أخذ على نفسه العهد، فيقول: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾ [طه: ١٢٤]. حتى إن المتنبي يقول: لا تُصدقوا الشيخ إذا قال: آه. فإنه ما مل من الحياة، فقال:

وَإِذَا الشَّيْخُ قَالَ: آه، فَمَا      مَلْ حَيَاةٍ وَلَكِنَّ الشَّيْبَ مَلْ

أي: إن الشيب مل منه، أما هو فما مل الحياة، نحن حريصون على الحياة،  
وله كلمات عجيبة حتى إنه يقول:

كُلُّ دَمْعٍ يَسِيلُ مِنْهَا عَلَيْهَا      وَبِتَرْكِ الْيَدَيْنِ مِنْهُ تَخْلَى

حتى قال الشوكاني في القصيدة نفسها: لا إله إلا الله ما أدق نظر المتنبّي!  
ولا إله إلا الله ما أحسن حكمه! يقول: الإنسان إذا بكى من الدنيا فهو يبكي عليها،  
لا يتركها وهو ميت إلا وهو متشبه بها، حتى إنهم يسحبون الإنسان من الدنيا وهو  
متشبه بها. ولا يعرّنك كلامهم؛ فإن أكثر الناس متشبثون بها.

ووجهوا رسائل في الشيخوخة، حتى إن شيخاً كبيراً مرّ بشباب، فتغامزوا لما  
رأوا لحيته كلها بيضاء وهو منحنٍ وكانت لحيته طويلة على صدره كأنها قوس،  
فقال له أحد الشباب: يا شيخ، من أهدى لك هذا القوس؟ قال: أهدانيه الدهر  
وسوف يهدي لك قوساً مثله بلا ثمن. وهو ترقب الأيام والليالي، حتى إن الأندلسي  
أبو إسحاق الإلبيري مر، وإذا ابنه لاه مع شباب في حديقة لا يطلب العلم ولا يقرأ  
القرآن ولا يحفظ ولا يقدم نافعاً للناس، لا رسالة نافعة عنده في الحياة، فنظم له  
قصيدة تقطع القلب يقول من ضمنها:

تَفَتُّ فَوَادِكَ الْأَيَّامُ فَتًا      وَتَنَحَّتْ جِسْمَكَ السَّاعَاتُ نَحْتًا  
وَتَدْعُوكَ الْمُنُونُ دُعَاءَ صِدْقٍ      أَلَا يَا صَاحِبِي أُرِيدُ أَنْتَا

إلى أن يقول فيها:

وَيَقْبُحُ بِالْفَتَى فِعْلُ التَّصَابِي      وَأَقْبَحُ مِنْهُ شَيْخٌ قَدَّ تَفَتَّى

يقول: قبيح الشاب أن يفعل خطأ وشرّاً، لكن أقبح وأشنع من ذلك الشيخ الكبير  
الذي يعود كأنه شاب في المخالفات، حتى يقول أبو الفتح البستي في قصيدته:

زِيَادَةُ الْمَرْءِ فِي دُنْيَاهُ نُقْصَانٌ      وَرَبْحُهُ غَيْرُ مَخْضٍ خَيْرٍ نُقْصَانٌ

إلى أن يقول فيها:

هَبِ الشَّبِيْبَةَ تُبْدِي عُذْرَ صَاحِبِهَا مَا بَالُ أَشْيَبِ يَسْتَهْوِيهِ شَيْطَانُ

يقول: قدر أن الشاب يكون معذوراً؛ لأن عمر ﷺ يقول: «الشَّبَابُ شُعْبَةٌ مِنَ الْجُنُونِ»، وحتى يقول حسان ﷺ: «إِنَّمَا الشَّبَابُ وَاللَّمَّةُ السُّودَاءُ مَا لَمْ يُعَاصِمَ كَانَتْ جُنُونًا». فاللَّمة السوداء والشباب إذا لم يعصما الإنسان كان جنوناً، فشباب الإنسان شيء من الاندفاع إذا ما حده بتقوى وبعقل.

دُعِيَ أَحَدُ كِبَارِ السَّنِّ إِلَى بَعْضِ الْمَجَالِسِ اللَّاهِيَةِ، فَقَالَ:

كَفَى الشَّيْبُ وَالْإِسْلَامُ لِلْمَرْءِ نَاهِيَا

فالشيب ينهى ولذلك ترى كثيراً من الناس يفرح أن قد كبر من أجل أن يعود له عقله وتنضح تجربته ويستقيم نهجه، حتى إن علي بن جبلة العكوك يقول: وَأَرَى اللَّيَالِي مَا طَوْتُ مِنْ قُوَّتِي وَحَدَّثِي رَدَّتْهُ فِي عِظْتِي وَفِي إِهْهَامِي فيقول: الليالي، كلما أضعفت من جسمي ردت في عظتي وفي ذهني وفي فكري، ولذلك ترى الكبير يضعف في جسمه، لكن عقله يتوقد، والشاب جسمه، قوي لكن عقله فيه طيش بخلاف هذا.

فكانوا يفرحون بالشيب ويرحبون به، يقول الأندلسي:

ذَهَبَ الشَّبَابُ بِجَهْلِهِ وَبِعَارِهِ وَأَتَى الْمَشْيِبُ بِحِلْمِهِ وَوَقَارِهِ

فإذا عُلِمَ هذا، فإن بعضهم كان يتمنى الشياب أيضاً؛ لأن في الشياب النوم الهنيء والتمتع بالحياة الطيبة والسمع الحاد والبصر القوي والذاكرة المتوقدة والنشاط والمسابقة، وإلى غير ذلك، حتى يقول أبو العتاهية:

أَلَا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْمًا فَأُخْبِرُهُ بِمَا فَعَلَ الْمَشْيِبُ

فيقول: يا ليت شبابنا يرجع إلينا فأخبره ما فعل بنا هذا المشيب. فالمشيب يجعلك لا تنام إلا قليلاً؛ سعال وصداع وأمراض وأوجاع وشكوى، حتى إنك تجد الشيخ الكبير، وخاصة إذا لم يكن عنده معرفة أو تلاوة أو ذكر لله ﷻ وعلم يمل، وربما يذهب بعضهم يعالجونه؛ لأنه انتهى فهو يعيش وحده؛ عنده فراغ فلا رصيد من العمل ولا رصيد من الذكر ولا أعمال يقدمها من الخير، فيقول:

أَلَا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْمًا فَأَخْبِرُهُ بِمَا فَعَلَ الْمَشِيبُ  
النساء لا يريدنه، حتى يقول أحدهم:

رَأَيْتَ الْعَوَانِي الشَّيْبَ لَأَحْتَبِعَارِضِي فَأَعْرَضَنِي بِالْحُدُودِ التَّوَاضِرِ

فهم يكرهون الشيب من أجل هذا، ولكنهم يسترونه، حتى إن المتنبّي يقول:  
وَمِنْ هَوَى الصِّدْقِ فِي قَوْلِي وَعَادَاتِي تَرَكْتُ شَعْرًا بِرَأْسِي غَيْرَ مَحْضُوبِ  
يقول: إنه من صدقي ووضوحي وشفافيتي أنني لا أخضب شعري.

هذه مسألة أخرى، لكننا نعود إلى مسألة الهرم.

وثلاثة لا يهرمون: حافظ القرآن العامل به، والجواد الذي نفع المسلمين نفعاً موصلاً لهم الخير لوجه الله ﷻ، والحاكم العادل الوالي المقسط في الرعية. يحفظهم الله من الخرف ومن الهذيان، ويجعلهم مسددين حتى يقول ﷻ:  
﴿ يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

دخلوا على رجل في سنته المئة، فسأله: كيف وجدت الحياة؟ قال: والله كأنه بيت أو كأنه غرفة لها بابان دخلت من هذا وخرجت من ذلك.

وقيل لأحدهم -وقد بلغ المئة-: كيف وجدت الحياة؟ قال: كأن رجلين: رجل في ليلة رأى أنه تعشى أحسن الطعام ولبس أحسن الثياب وهو في قصر منيف وفي

## الشَّيْبُ وَالْحَرَمُ

حديقة غناء، ورجل بجانبه رأى في المنام مثلما فعل هذا في اليقظة. أي: إنها أحلام يقظة، فكأنك ترى الحياة مثل الفيلم ومثل المسرحية، حتى يقول الكوفي صاحب العادات السبع في رسالة له: إنه زار مقبرة كاليفورنيا، فعجب؛ فغير رئيس الجمهورية بجانب قبر هذا البائس الفقير. حتى يقول ابن الزبير:

وَالْخَسِيَمَاتُ قَلِيلٌ بَيْنَهَا      وَسَوَاءٌ قَبْرُ مُثْرٍ وَمُقْبَلُ

فقبر هذا المثرى شبيه بقبر الفقير البائس الحقير؛ لأن القبور لا تُفَرِّقُ.

يقول أحدهم:

أَتَيْتُ الْقُبُورَ فَتَادَيْتُهَا؛      أَيُّنَ الْمُعْظَمِ وَالْمُحْتَقَرِ؟  
تَفَانُوا جَمِيعاً فَمَا مُخْبِرٌ      وَمَاتُوا جَمِيعاً وَمَاتَ الْخَبِرُ  
تَرُوحُ وَتَغْدُو بَنَاتُ الثَّرَى (١)      فَتَمُحُو مَحَاسِنَ تِلْكَ الصُّورِ  
فَيَا سَائِلِي عَنِ أَنْاسٍ مَضُوءَا،      أَمَا لِكَ فِيمَا مَضَى مُعْتَبِرُ

يقول المتنبي:

أَبْنِي أَبِيْنَا، نَحْنُ أَهْلُ مَنَازِلِ      أَبْدَا غُرَابُ الْبَيْنِ فِيهَا يَنْعِقُ

الفراق دائم؛ فهذه جنازة هذا وهذا يحط وهذا يودع كأننا في محطة قطار أو مطار مسافرين.

نَبِكِي عَلَى الدُّنْيَا وَمَا مِنْ مَعْشَرٍ      جَمَعَتْهُمْ الدُّنْيَا فَلَمْ يَتَفَرَّقُوا  
أَيُّنَ الْجَبَابِرَةَ الْأَكَاسِرَةَ الْأَلَى      كَنَزُوا الْكُنُوزَ فَلَا بَقِيْنَ وَلَا بَقُوا  
مِنْ كُلِّ مَنْ ضَاقَ الْفَضَاءُ بِجَيْشِهِ      حَتَّى دَوَى فَحَوَاهُ لِحَدِّ ضَيْقِ

(١) بنات الثرى: الدود. تروح على الخنود، وعلى العيون، وعلى المياسم.

تجد الإنسان كأنه يملك الدنيا والناس والجنود والبنود والأعلام وأقواس النصر، ثم يُلَفُّ في خرفة ويُدَسُّ في التراب.

حتى إنك إذا كلمتهم لا يردون عليك، تسلم على المقبرة ولا أحد، يقول:

مَا فِي الدِّيَارِ لِمُخْبِرٍ إِلَّا النَّدَى لِمُصَوِّتٍ  
نَادَيْتُ: أَيَّنَ أَحْبَبْتِي؟ فَأَجِبْتُ: أَيَّنَ أَحْبَبْتِي؟

أي: إنه جاء المقبرة، وصاح: أين أحبتي؟ فلم يسمع إلا الصدى، فرجع عليه الصوت: أين أحبتي، فقال:

خُرْسٌ إِذَا نُودُوا كَأَنَّ تَمَّ يَعْلَمُوا  
أَنَّ الكَلَامَ لَهُمْ حَالًا مُطْلَقٌ

فلا أحد حرم عليهم الكلام فلم لا يردون علينا الكلام؟

فَالْمَوْتُ آتٍ وَالنُّفُوسُ نَفَائِسٌ وَالْمُسْتَعِزُّ بِمَا لَدَيْهِ الْأَحْمَقُ

فإذا رأيت الإنسان يستعز بما عنده من مال أو ولد أو منصب ولا يستعز بما له عند الله من طاعة فهو أحمق، فيه حَبْلٌ وَهَبْلٌ.

وَالْمَرْءُ يَأْمَنُ وَالْحَيَاةُ شَهِيَّةٌ وَالشَّيْبُ أَوْقَرُ وَالشَّبِيبةُ أَلْزَقُ

فَمَعَ الشيب العقل والحكمة والأناة والبصيرة وتدارس العواقب، ومع الشباب الهمة والطموح والإقبال، فكونوا في عقول الشيوخ وفي همم الشباب؛ حتى تصلوا إلى المجد الدنيوي والأخروي بإذن الله.



## الفرج بعد الشدة

الفرج بعد الشدة كلمة جميلة يرتاح لها كل إنسان؛ لأنه ما من أحد إلا ويمر به شدة، فهو يريد الفرج، والله عز وجل قد بشرنا أن مع كل يسر عسر: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۗ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦]. فنكّر اليسر فصار مغايراً لليسر الأول، بينما المعرفة واحدة في العسر هنا والعسر هناك.

ونظم أهل الأدب في ذلك بعض القوافي الجميلة يخبرون الناس بأنهم سوف يسعدون بعد الشدة، وسوف يأتيهم الفرج، حتى إن علي ابن جيلة العكوك يقول:

عَسَى فَرَجٌ يَكُونُ عَسَى      نُعَلِّلُ نَفْسَنَا بِعَسَى  
فَلَا تَجْرَعُ إِذَا حَصَلَتْ      سَتَ هَمًّا يَطْطَعُ النَّفْسَا  
فَأَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْمَرْءُ      مِنْ فَرَجٍ إِذَا يَسَا

ولذلك إذا اشتدت الظلمة جاء الفجر، وإذا اشتد الحبل انقطع، وإذا رأيت الصحراء تمتد وتمتد وأنت تمشي فاعرف أن وراءها الخير وبعد التل ترى أرضاً خضراء، وابن السكيت يقول:

إِذَا اشْتَمَلَتْ عَلَى الْيَأْسِ الْقُلُوبُ      وَضَاقَ بِمَا بِهِ الصَّنَدُ الرَّحِيبُ  
وَأَوْطِنَتْ الْمَكَارِهِ وَأَطْمَأْنَنْتْ      وَأَزْسَتْ فِي أَمَاكِنِهَا الْخُطُوبُ  
وَلَمْ تَرَ لَانْكِسَافِ الضَّرِّ نَفْعًا      وَمَا أُجْدَى بِحِيلَتِهِ الْأَرِيبُ  
أَتَاكَ عَلَى قُنُوطٍ مِنْكَ أَمْرٌ      يَمُرُّ بِهِ اللَّطِيفُ الْمُسْتَجِيبُ  
وَكُلُّ الْحَادِثَاتِ وَإِنْ تَنَاهَتْ      فَمَوْصُولٌ بِهَا فَرَجٌ قَرِيبُ

هذا الفرج سوف يأتي ويصل إلى المريض إذا كتب الله له عافية، وإلى المحبوس وإلى المبتلى وإلى المدين وإلى الضال وإلى المكسور والمصاب، وإلى غير ذلك من المبتلين والمعذبين، حتى إن ابن الرومي له إشرافات وهو الذي يقول بعدما فارق بغداد:

لَعَلَّ اللَّيَالِي بَعْدَ شَحْطِ مِنَ النَّوَى      سَتَجْمَعُنَا فِي ظِلِّ تِلْكَ الْمَأَلِفِ  
نَعْمَ إِنَّ لِلْأَيَّامِ بَعْدَ انْصِرَافِهَا      عَوَاطِفَ مِنْ أَفْضَالِهِ الْمُتَعَاظِفِ

فهي الليالي شتى وألوان، ليلة لك وليلة عليك، ويوم لك ويوم عليك وكما يقول **عمران**: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. فينبغي أن تكون محسباً منتظراً الفرج، حتى يقول أحدهم:

وَلَرُبَّ نَازِلَةٍ يَضِيقُ بِهَا الْفَتَى      ذُرْعَا وَعِنْدَ اللَّهِ مِنْهَا الْمَخْرَجُ  
ضَاقَتْ فَلَمَّا اسْتَحْكَمَتْ حَلَقَاتُهَا      فُرِحَتْ وَكَذُنْتُ أَظْنُهَا لَا تُفْرَجُ

لأن المفرج هو موجود ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥٠]. ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]. حتى إن بعضهم كان يستبشر إذا اشتدت المصيبة والمشكلة، فقد أذن حلها بإذن الواحد الأحد، حتى كان يقول:

اشْتَبَدِي أَرْزَمَةَ تَنْضَرِجِي      قَدْ أَدْنُ لَيْلِكَ بِالْبَلَجِ

بالبلج، أي: بالصبح وبالسفر. ومن أحسن ما حفظ من الكلمات ما نسبوه إلى عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه كان يرمل، وكان يهزأ بها:

الْعَمْرَاتُ ثُمَّ يَنْجِلْنَهُ      ثُمَّةَ يَنْذَهَبْنَ وَلَا يَجِنُّهُ

العمرات هي الأزومات والكربات التي تأتيك ثم تتجلي عنك، تذهب عنك وتصبح في فرج وفي يسر وفي سهولة، فينبغي للمسلم أن يكون واثقا بالله رضي الله عنه، حتى أهل الجاهلية كانوا يثقون وكانوا يطلبون من ربهم الفرج، وحتى المشركين ﴿فَإِذَا رَكَبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]. وهم في الأزمة يعرفون أن هناك رباً على العرش استوى يفرج ويكشف الكربات، ويعافي المبتلى ويشفي المريض، ولذلك يقول النابغة يمدح عمرو بن هند:

وَلَا يَحْسَبُونَ الشَّرَّ لَا خَيْرَ بَعْدَهُ      وَلَا يَحْسَبُونَ الشَّرَّ ضَرْبَةَ لَازِمٍ

يقول: إذا جاءهم نعيم فلا يتكبرون ولا يبطرون ولا يفترون على الناس، بل يخافون من الليالي ويخافون من الانقلاب، وإذا جاءتهم مصيبة أو أزمة، فلا يستسلمون ويصيبهم الوهن. لأن بعض الناس يظنها النهاية، فقال:

وَلَا يَحْسَبُونَ الشَّرَّ لَا خَيْرَ بَعْدَهُ      وَلَا يَحْسَبُونَ الشَّرَّ ضَرْبَةَ لَازِمٍ

في قصيدته المشهورة التي يقول فيها:

حَلَفْتُ يَمِينًا غَيْرَ ذِي مَثْنَوِيَّةٍ      وَلَا عَلِمَ إِلَّا حُسْنَ ظَنِّ بَصَاحِبِي

التي يقول فيها يمدح هؤلاء:

وَلَا غَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنْ سُوْفَهُمْ      بِهِنْ فُدُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكُتَائِبِ

وهذا مدح بما يُشبهه الذم، يقول: كل خصالكم جميلة ورائعة، لكن فيكم عيباً واحداً. حتى إن أحد الشعراء الشعبيين يمدح أحد الوجهاء، يقول:

شَيْخُ الْقَوَافِي يَا قَلِيلَ الْعَذَارِيْبِ      لَوْ تَسْتَحِي مَا تَجْمَعُ الطَّيِّبَ كُلَّهُ

وهذا من المبالغة.

ويقول النابغة: عيبكم شيء واحد، وهو أن سيوفكم مثلثة من شدة ما تواجهتم مع الأعداء من قراع الكتائب.

ولذلك وفد عُروة بن الزبير على عبد الملك بن مروان، بعدما انتصر عبد الملك، وقتل مصعب بن الزبير في العراق، فأتى عروة فقال: رد سيف أخي مصعب من عندك، قال: ما نعرف سيف مصعب، قال: أرني السيوف وأنا أعرفه. فأراه، فإذا فيه ثلثة ضرب به الزبير بن العوام رضي الله عنه في بدر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في المشركين، قال: بِمَ عَرَفْتَهُ؟ قال:

وَلَا غَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنْ سُوْفَهُمْ      بِهِنْ فُدُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكُتَائِبِ  
تَوُورُنْ مِنْ أَرْمَانِ يَوْمِ حَلِيمَةَ      إِلَى الْيَوْمِ قَدْ جُرِبْنَ كُلَّ التَّجَارِبِ

حتى يقول من ضمن القصيدة، ومن أروع ما قيل يمدح بالملوك بأنهم منعمون، حتى إنهم يلبسون لباساً جيداً، وكما في صحيح مسلم: «جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ»، الرجل يقول: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبِي جَمِيلاً وَنَعْلِي جَمِيلاً، أَذَاكَ

## الفرج بعد الشدة

مِنَ الْكِبَرِ؟ قَالَ ﷺ: لَا إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ». الكبر غمط الناس وبطر الحق، يقول النابغة:

رِفَاقُ النَّعَالِ طَيِّبٌ حُجْرَاتُهُمْ يُحْيُونَ بِالرَّيْحَانِ عِيدَ السَّبَاسِبِ

يقول: يفوح منها المسك. عيدهم هناك اسمه: السباسب. فيخرجون الجواري والولدان يحيونهم بالرياحين على الشوارع والسكك يوم المهرجان ويصطف الجمهور لهم، وقصدي هنا:

وَيَحْسِبُونَ الْخَيْرَ لَا شَرَّ بَعْدَهُ وَلَا يَحْسِبُونَ الشَّرَّ ضَرْبَةَ لِازِمٍ

حتى يقول يعقوب عليه السلام: ﴿يَنْبَغِي أَذْهَبُوا فَحَحَسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]. فلا تيأس ما دام أن هناك رباً يدعى هو يفرج الكربات، ألح عليه واسأله.

بالأمس القريب كنت أنا والشيخ د. سعد البريك في طائرة من المنامة إلى الرياض، ولما أقبلنا من مطار الرياض قالوا: هناك خلل فني في الطائرة، وأمور رعدية في الجو. فلما اقتربنا ما استطعنا الهبوط، وبقينا فوق سماء الرياض نصف ساعة، فتذكرت كلاماً كنت قد قلته وهو:

كَمْ نَطْلُبُ اللَّهَ فِي ضَرَرٍ يَحِلُّ بِنَا نَدْعُوهُ فِي الْبَحْرِ أَنْ يُنْجِي سَفِينَتَنَا وَنَرْكَبُ الْجَوْ فِي زَهْوٍ وَفِي دَعَا أَبُو الْعَتَاهِيَةِ يَقُولُ:

كَمْ مَرَّةً حَفَّتْ بِكَ الْمَكَارِهِ يَحْفَظُكَ اللَّهُ وَأَنْزَلَتْ كَارِهِ

يقول: كم مرة سجت وخرجت، وكم افتقرت واغتنت، وكم مرة أخذت ديناً وقضيت، وكم مرة مرضت وأخذوك إلى السرير الأبيض، وخرجت وتشافيت، وكم مرة جعت وشيعت.

ولذلك مُلْكُ قَائِدِ الْبَحْرِيَّةِ الْأَمْرِيكِيَّةِ غَرِقَ فِي بَحْرِ الْيَابَانَ بِصَارُوخٍ، قَالَ: فَنَزَلَتْ تَحْتَ الْمَاءِ (١٢ يَوْمًا) وَانْقَطَعَ الْإِتِّصَالُ بِالْعَالَمِ الْخَارِجِيِّ، وَخَرَجَتْ بِثَلَاثِ حَقَائِقٍ:

**الأولى:** أن هناك إلهًا يحكم العالم ويحكم الكون لا إله إلا الله.

**الثانية:** الذي ما عنده إلا خبز دافئ وماء بارد كفاه.

**الثالث:** لا تجزي القوة الصغرى تتصل بها في الأزمات عن القوة العظمى. ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]. ﴿وَوَكَّلَ عَلَى الْوَحْيِ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]. ولذلك يقول يوسف عليه السلام في الزنرانة: ﴿يَصْلِحْجِي السَّجْنَءَ أَرْيَابُ مُتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَالِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]. لما سأله عن تعبير الرؤيا فدلهم على أن الواحد القهار هو خير عليه السلام وهو الذي تفرّد بالأسماء والصفات والأفعال، وهنا يقول أبو تمام:

قَدْ يُنْعِمُ اللَّهُ بِالْبُلُوَى وَإِنْ عَظُمَتْ      وَيَبْتَلِي اللَّهُ بَعْضَ الْقَوْمِ بِالنِّعَمِ

أي: إنه خير من الله عليه السلام، أحياناً يكون ظنك أنك في بلوى وأنت في شدة، فقير، لكنك حقيقة في نعمة؛ فربما منعك من الربا ومنعك من العصيان ومنعك من أمور لا تعلمها أنت ولا تدري ما هي، وقد يُنْعِمُ اللَّهُ عَلَى قَوْمٍ بِالْبُلُوَى وَيَبْتَلِي اللَّهُ قَوْمًا بِالنِّعَمِ. وهذا كما قال الله عليه السلام: ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩]. حتى يقول أبو الطيب:

لَعَلَّ عَثْبَكَ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ      فَرُبَّمَا صَحَّتِ الْأَجْسَادُ بِالْعَلَلِ

أحياناً تأتيك علة وفيها صحة الجسم، وأحياناً تأتيك مصيبة وفيها نجاحك واستمرارك، وأحياناً محنة وفيها المنحة لك، وأحياناً تقع في بلية وهي العطية وأنت لا تدري، ورب ضارة نافعة من حكم الباري عليه السلام، فاختيار الله لنا أحسن من اختيارنا لأنفسنا، وكما يقول ابن قاضي:

لَا تَشْتَكِي - يَا وَاحِدٌ - بَأْسَ مَهْمُومٍ      تَرَى الْفُرَجَ عِنْدَ قَرَابِ الْحِزَامِ  
وَإِنْ كَانَ عَيْنُكَ خَالَفَتْ مُدَّةَ النُّورِ      أَنْتِ تَنَامُ وَخَالَفُكَ مَا يَنَامُ

لك سجدة، أو تشير بالسيابة لله الواحد الأحد ﷻ.

وقد فرّج عن المسلمين في كابول لما فتحها محمد بن واسع أشرب بالسيابة:  
يا حيُّ يا قيوم يا حيُّ يا قيوم، تحرك الجيش ففتحت، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: 65]. من يُدير الكون غيره ﷻ.

فقصدي أنه ينبغي أن نتأمل، وأن يكون عندنا انتظار لموعود الله ﷻ ونمني أنفسنا بأنه أقبيل الفرج.

وقد سمعت كلام المفسرين والأدباء والحكماء والشعراء كلهم أجمع على ذلك، حتى أهل الجاهلية وأهل الإسلام. وفي كتاب (بزرجمهر) أن عجوزاً فارسية كان لها كوخ بجانب قصر كسرى، فلما ذهبت قالت: يا ربِّ، أستودعك كوكخي وما فيه وأنت لا تضيع ودائعك. فإنهم مقرؤون كما كل الأمم أن هناك إلهاً يدير الكون، يقول ابن تيمية: ما ينكر الصالح في الظاهر الإفرعون، أما في الباطن، ففرعون يعترف بذلك. حتى إن موسى عليه السلام يقول: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلًّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَنْفِرَعَوْتُ مَشْجُورًا﴾ [الإسراء: 102]. أي: والله إنك في نفسك تعرف أن هذا الكون لا تخلقه أنت، فأنت ذرة من ذرات الدنيا والإفلاك والأفلاك وهذا الكون. راحت هذه العجوز في عهد كسرى، فعدا الجنود على كل شيء وأخذوا الدجاج فأكلوه وهدموا الكوخ، فلما أتت قالت: يا ربِّ، غيبتُ أنا فأين أنت يا ربِّ؟. أستغفر الله، ثم دعت عليه، وافقت دعوتها سيد الخلق ﷺ، في تلك الأثناء أرسل ﷺ خطاباً لكسرى، فلما قرأه متكبراً ومزقاً، فأخبر الرسول الذي أرسله ﷺ، فقال: «مَزَقَ كِتَابَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ».

قَالَ: مَزَّقَ اللَّهُ مُلْكَهُ كَمَا مَزَّقَ كِتَابِي». فبعدها بليلة عدا عليه ابنه بالخنجر، فمزقه في فراشه. قالها الحافظ الذهبي وابن كثير وغيرهما، فمزقه في الفراش.

وعلى ذكر العجائز كانت عجوزٌ في عهد ابن الفرات، يقولون: اعتدى على بستان لها وأخذه وضمَّ معه الصكَّ عنده، فقالت للوزير: اتقِ الله فالدار داري، والله لأدعونَّ عليك. فقال: انتظري الثلث الأخير؛ فقد سمعنا أن الثلث الأخير شيء عظيم. فانتظرت الثلث الأخير شهراً وهي ترسل رسائل، مداها وحيرها الدموع وقراطيسها الدموع وترسلها في السحر وتصل العرش مباشرة، وجاء الجواب بعد شهر، فجاء الخليفة وأخذ ابن الفرات وجلد ظهره وقطع يده وعلقها عند باب الخلافة، ومرَّت عليه وإذا هو يُجلد والخيزران تشتغل على ظهره في الظهيرة، فقالت: والله من أحسن ما يكون الثلث الأخير، وإنك نصحتني بهذا وجزاك الله خيراً أن نصحتني بهذا. ثم قالت:

إِذَا جَارَ الْوَزِيرُ وَكَاتِبَاهُ      وَقَاضِيَ الْأَرْضَ أَجْحَفَ فِي الْقَضَاءِ  
فَوَيْلٌ لِّمَنْ وَوَيْلٌ لِّمَنْ وَوَيْلٌ      لِقَاضِي الْأَرْضِ مِنْ قَاضِي السَّمَاءِ

فانظر كيف صبت عليه جام غضبها، فأجاب الله ﷻ دعوتها، حتى إنه تعالى يقول: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]. ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]. ﴿أَدْعُوْنِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]. فكما هو منهج عند كثير من العقلاء في العالم بغض النظر أنه سوف يُسهل الأمر، ولذلك ينبغي لمن ليس عنده فهم ولا علم أنه إذا مرت به أزمة أن يقول:

اِسْتَدِيْ اَزْمَةَ تَنْفَرِجِي      قَدْ اَدْنُ لَيْلِكَ بِالْبَلَجِ

ويقول آخر:

لَطَائِفُ اللَّهِ وَإِنْ طَالَ الْمَدَى  
كَمْ فَرَجٍ بَعْدَ إِيَاسٍ قَدْ أَتَى  
مَنْ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِذِي الْعَرْشِ جَنَى  
مَنْ يَتَجَرَّعُ غُصَصَ الصَّبْرِ  
سُبْحَانَ مَنْ يَعْفُو وَتَهْفُو دَائِمًا  
يُعْطِي الَّذِي يُخْفِي وَلَا يَمْنَعُهُ  
كَلِمَةُ الطَّرْفِ إِذَا الطَّرْفُ بَدَا  
وَكَمْ سُرُورٍ قَدْ أَتَى بَعْدَ الْأَسَى  
خُلُوعًا جَنَى الشَّاكِّ مِنْ شَوْكِ السَّفَى  
يَذُقُ حَلَاوَةَ عَلَى طُولِ الْمَدَى  
وَلَا يَزَالُ مَهْمًا هَفَى الْعَبْدُ عَفَا  
جَلَالُهُ عَنِ الْعَطَا لِذِي الْخَطَا

فهو **عز وجل** متفضل علينا حتى في الأثر القدسي: «خَيْرِي إِلَيْكَ - يَا بَنَ آدَمَ - نَازِلٌ، وَشَرُّكَ إِلَيَّ صَاعِدٌ، أَتَقَرَّبُ إِلَيْكَ بِالنِّعَمِ وَأَنَا غَنِيٌّ عَنْكَ وَتَتَبَعُضُ إِلَيَّ بِالْمَعَاصِي وَأَنْتَ فَقِيرٌ إِلَيَّ، خَلَقْتُكَ وَتَعَبَّدُ خَيْرِي وَرَزَقْتُكَ وَتَشْكُرُ سِوَايَ». فالنعيم كلها والستر والعفاف والغنى من الله الواحد الأحد، والدنو والتقصير من العبد، فغالب العبد صاحب هوى ونفس أمارة وشيطان ودنيا مؤثرة، لكن العجيب أن الإنسان إذا وقع في مأزق أو مشكلة ظن أنه انتهى الحال به، ولكن لم ينته **﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾** إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾.





## الوطن

الوطن مضغة من القلب؛ لأنه مسقط الرأس،  
دَرَجَتْ على تراب الوطن واستنشقت هوائه وشربت  
ماءه، فأصبح الوطن يجري حبه في دمك، ولذلك  
في القرآن يقول الله ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ  
أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ  
إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٦]. فجعل قتل النفس  
شقيق الخروج من الوطن، حتى إنه لما أُخْرِجَ ﷺ  
من مكة من مرابع فتوته وملاعب صباه ومغاني  
شبابه، التفت إلى مكة ونظر إليها وبكى، قال:  
﴿وَاللَّهِ - يَا مَكَّةُ - إِنَّكَ مِنْ أَحَبِّ بِلَادِ اللَّهِ إِلَيَّ،

وَلَوْلَا أَنْ أَمْلِكُ أَخْرَجُونِي مِنْكَ مَا خَرَجْتُ». فكان يحن لها عليه السلام ويتمنى أن يبقى فيها، ولكنه عليه السلام طرد منها، حتى يقول أحدهم:

يَا طَرِيدًا مَالًا الدُّنْيَا اسْمُهُ      وَعَدَا لَحْنًا عَلَيَّ كُلِّ الشِّفَاةِ  
وَعَدَّتْ سَيْرَتُهُ أَنْشُودَةً      يَتَلَقَّهَا رُؤَاةٌ عَنِ رُؤَاةِ  
هَلْ كَرَّتْ مَنْ طَارَدْتَهُ أُمَّةٌ      هُبْلُ مَعْبُودُهَا شَاهَتْ وَشَاهُ  
طَارَدَتْ فِي الْبَيْدِ مَنْ بَوَّأَهَا      مَنْزِلًا لَا يَبْلُغُ النُّجْمَ مَدَاهُ

فهو عليه السلام كان يحن إلى الوطن، وفي بعض الآثار: «حُبُّ الْوَطَنِ مِنَ الْإِيمَانِ». ولما هاجر الصحابة عليهم السلام أصابت الحمى بلال بن رباح رضي الله عنه في المدينة، فكانوا يَمرون به ويرفع عقيرته وينشد بصوته الجميل الندي الذي كان يؤذن به، فيهز به أطناب القلوب، فيمرون عليه وهو ينشد ويقول ويستشهد بشعر ليس له عليه السلام بل لشاعر قديم:

يَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَعْرَسُ لَيْلَةً      فَأَشْتَمُ حَوْلِي إِذْ خَرًّا وَجَلِيلاً (١)  
أَوْ تَرُونِي يَوْمًا مِيَاءَ مِجْنَةَ      وَيَشِيْمُ طَرْفِي شَامَةً وَطَفِيلاً (٢)

يا ليت شعري هل تطول بي الحياة وأعود إلى مكة، وأرى الإذخر والجيل أشمهما وأتمتع برؤيتهما، وهل أرد ماء مجنة فأشرب منه ولو شربة قبل الموت، وأرى جبل شامة وطفيل أمامي. إنه حب الوطن والولوع إلى تلك الديار وتلك المنازل، ولذلك يقول ابن الرومي - وهذا أحسن كلام في الوطن لابن الرومي -:

وَلَيْ وَطَنٌ أَلَيْتُ أَلَّا أُبِيعَهُ      وَأَلَّا أَرَى غَيْرِي لَهُ الدَّهْرَ مَالِكًا  
عَهَدْتُ بِهِ شَرْخَ الشُّبَابِ وَنِعْمَةً      كَنِعْمَةِ قَوْمٍ أَصْبَحُوا فِي ظِلَالِكَا

(٢) الإذخر: شجر.

(١) مجنة: ماء في مكة.

وَحَبَبَ أَوْطَانُ الرِّجَالِ إِلَيْهِمْ      مَعَاهِدُ قَضَاهَا الشَّبَابُ هُنَاكَ  
إِذَا ذَكَرُوا أَوْطَانَهُمْ ذَكَرْتَهُمْ      عُهُودُ الصِّبَا مِنْهَا فَحَنُوا لِدُنَا

السمكة لا تريد إلا موطنها في الماء، والسلحفاة تريد مكانها، والطائر يريد العش، والنملة تريد بيتها، والإنسان يحن لموطنه وتجده عاشقاً لهذا الوطن متعلقاً به، فطرة من الله ﷻ حتى يقول ابن الفارض:

مَنْ لِقَلْبِ حَلِّ جِرْعَاءِ الْحَمَى      ضَاعَ مِنِّي هَلْ لَهُ رَدُّ عَلَيَّ  
فَاسْأَلُوا سُكَّانَ وَادِي سَلَمٍ      فَهُوَ مَا بَيْنَ كُذَاءٍ وَكُنْدِي

يقول: تلك منازل قلبي هناك، حيث أسكن.

وعروة بن حزام كان ينزل هنا، يقول:

جَعَلْتُ لِعِرَافِ الْيَمَامَةِ حُكْمَهُ      وَعِرَافُ نَجْدٍ إِنْ هُمَا شَفِيَانِي

حتى إن شوقي أمير الشعراء لما نُفي من مصر يقول:

أَحْرَامٌ عَلَى بِلَابِلِهِ السُّوْحُ      حَلَالٌ لِلطَّيْرِ مِنْ كُلِّ جِنْسِ  
وَطَنِي لَوْ شَغِلْتُ بِالْخُلْدِ عَنْهُ      نَارَ عُنْتِي إِلَيْهِ فِي الْخُلْدِ نَفْسِي

ولكن معنى هذا البيت خاطئ، ومعناه يقول: لو كنت في جنات النعيم لاشتقت،

وأنا داخل الجنة إلى وطني، وهذا خطأ ومبالغة، وهو الذي يقول في دمشق:

لَمَّا مَرَرْتُ بِالْمَسْجِدِ الْمَحْزُونِ أَسْأَلُهُ      هَلْ فِي الْمَصَلِيِّ أَوْ الْمِحْرَابِ مَرْوَانُ

إلى أن دخل دمشق، يقول:

أَتَى يُصَفِّقُ يَلْقَانَا بِهَا بَرْدِي (١)

كَمَا تَلْقَاكَ دُونَ الْخُلْدِ رَضْوَانُ

(١) نهر بردى.

وَالْحُورُ فِي دُمُرٍ أَوْ دُونَ هَامَتِهِ      حُورُ الْحَرَائِرِ زَانَتْهُنَّ عُقْيَانُ  
وَرَبْوَةُ الْوَادِ فِي جِلْبَابِ رَاقِصَةٍ      الصُّنْدُ كَاسِيَةٌ وَالسَّاقُ عَزِيَانُ

إلى آخر ما قال، وهذه من أحسن قصائده على كل حال، وإلا فله قصيدة في دمشق، بعدما انتصر السوريون على الفرنسيين، فقال:

سَلَامٌ مِنْ صَبَا بَرْدَى أَرْقُ      وَدَمْعٌ لَا يُكْفِكُفُ يَا دِمَشْقُ  
وَمَعْدِرَةُ الْيَرَاعَةِ وَالْقَوَافِي      جَلَالُ الرَّزْءِ عَنْ وَصْفِ يَدِيقُ  
دَخَلْتُكَ وَالْأَصِيلُ لَهُ انْتِلَاقُ      وَوَجْهِكَ ضَاحِكُ الْقَسَمَاتِ طَلْقُ  
دَمُ الثُّوَارِ تَعْرِفُهُ فَرَنْسَا      وَتَعْرِفُ أَنَّهُ نُورٌ وَحَقُّ  
وَلِلْحُرِّيَّةِ الْحَمْرَاءِ بَابُ      بِكُلِّ يَدٍ مُضْرَجَةٍ يُنْدَقُ

على أن الشيخ الكبير الأديب علي الطنطاوي يعترض على القصيدة ويقول: أُو، أُو، القصيدة متعبة في القافية. مع العلم أنها من أجمل القصائد، وهذه وجهة نظر للشيخ علي الطنطاوي، وإلا فإن قصيدته هذه يحتفلون بها، ولكن النونية عندي في دمشق لشوقي أحسن من هذه القافية التي ذكرها.

وابن الخياط له مقطوعة في نجد؛ لأنه مر بنجد، وقيل نجد يقول في كتاب الحماسة:

أَقُولُ لِصَاحِبِي وَالْعَيْسُ تَهْوِي (١)      بِنَا نَحْوَ الْمَجْرَةِ فَالضَّمَارِ  
تَمْتَعُ مِنْ شَمِيمِ عَرَارِ نَجْدِ      فَمَا بَعْدَ الْعَشِيَّةِ مِنْ عَرَارِ

وهذا من أجمل ما يكون في الأدب، حتى يقول ابن الخياط:

(١) يقول: المسافرون تاركو نجد ويريدون أن يذهبوا إلى الحجاز، فيوصي صاحبه.

خُذَا مِنْ صَبَا نَجِدَ أَمَانًا لِقَلْبِهِ      فَقَدْ كَادَ رِيَاهَا يَطِيرُ بِلَبِّهِ  
وَإِيَّاكُمْ ذَاكَ التَّسْبِيحَ فَإِنَّهُ      إِذَا هَبَّ كَانَ الْوُجُدُ أَيْسَرُ خَطْبِهِ

فدل على أن حب الوطن مركزوز في طبائع الناس، حتى إنك لو حدثت الإفريقي الذي يعيش في الصحراء التي تكاد حرارتها تُقَطِّعُ البدن يرى أنه في جنات النعيم، والشامي الذي في القطب كذلك، حكمة بالغة أن حبيب الله ﷺ أهل الديار إلى ديارهم؛ لِيُسْكِنَ الأرضَ وتَعْمَرَ.

كانت خزاعة قبل قريش في مكة، ثم أُبيدت خزاعة، وأُبيدت من قبل خزاعة قبائل، وهذه سنة الله ﷻ في الأمم والدول والشعوب والقبائل، أمة بعد أمة ودولة بعد دولة وقبيلة بعد قبيلة ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاؤُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. قيل: في مكة كان رجل من خزاعة تأثر وبكى لما رأى قبور الناس من خزاعة في مكة، فقال:

كَانَ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحُجُونَ إِلَى الصَّفَا      أَنَيْسٌ وَلَمْ يَسْمَعْ بِمَكَّةَ سَامِعُ  
ويقول هارون الرشيد:

بَلْ نَحْنُ كُنَّا أَهْلَهَا فَأَبَادَنَا      صُرُوفَ اللَّيَالِي وَالْجُنُودُ الْعَوَارِئُ

علماً أنه لا يجوز للإنسان أن يتشاءم، ويقول: حظي العاثر أو المشؤوم. لا، أمة تذهب، أمة سادت ثم بادت، ملك علا ثم هوى ويبقى الواحد الأحد ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [الفصص: ٨٨].

أَيُّنَ عَادَ أَيُّنَ نَمْرُودُ وَمَنْ      وَلِي الْأَحْكَامِ طُورًا وَعَزَلَ  
كُتِبَ الْمَوْتُ عَلَى الْكُلِّ فَكَمْ      فَلْ مَنْ جَيْشٍ وَأَفْنَى مِنْ دُولِ

وتفرد هو بالبقاء ﷻ فينبغي أن يُلاحظ أن حب الوطن ليس كما يقول بعض الناس: الوطنية محرمة. لا، الوطنية إذا كان يحب الوطن أكثر من الإسلام أكثر

معتقداً أفلا يجوز، لكن إذا أحب وطنه من باب الوفاء ودافع عن وطنه، فهذا لا بأس به، كل الأمم تدافع عن أوطانها، ولما دافع العراقيون عن بلادهم قال أحد الشعراء العراقيين:

مُتَمِّمُ الْمَجْدِ دَمٌ جُودْنَا بِهِ فَاسْأَلُوا كَيْفَ دَفَعْنَا الثَّمَنَ

فينبغي للإنسان أن يعتقد هذا ويعيش دفاعاً عن معتقده وعن وطنه، وإن رجلاً لا يحب دينه قبل كل شيء ثم يحب وطنه فإنه مشكوك في انتمائه وفي وفاقه، قالوا: يُعرف الرجل بوفائه لأمرين: بوفائه لوطنه، وبوفائه لإخوانه، فلهذا تجده يحسن لفلان ويتذكره فاعرف أن فيه مروءة وأن معدته طيب، وإذا حن إلى وطنه ومراتح شبابه وملاعب صباه فاعرف أنه وفيّ، أما القاطع الجافي فإنه يتنكر لأوطانه ولإخوانه، فلا يذكر الوطن بخير ولا يذكر إخوانه بخير، فتجده سيئاً عنده بلاده وغيرها، فكيف إذا كان الوطن مهبط الوحي ومهد الرسالة ومنطلق التعاليم الربانية؟ وكيف إذا كان هذا الوطن تراباً مشى عليه محمد ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ؟ وكيف هذا إذا كان هذا الوطن جبريل ﷺ التقى على ظهره بمحمد ﷺ؟

هذا هو وطننا، وطننا الذي رضيهِ لنا اللهُ ﷻ وفيهِ أم القرى وفيهِ المقدسات وفيهِ مهبط الوحي، حتى يرى كل مسلم أن من المعتقد أن يحب هذا الوطن؛ لأن فيه قبلة المسلمين التي يؤمها الناس، فنحن نقول: نسأل الله أن يجعل وطننا الأم في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر؛ لأن ذلك الوطن هو وطننا الأساسي؛ لأن أبانا آدم كان في تلك الجنة.

كنا في وطننا ذلك، كنا في جنات النعيم، لكن أبانا آدم ﷺ لما أكل من تلك الشجرة وكتب الله ﷻ عليه تلك المعصية هبط بنا، فالواجب أن نَحْنُ إلى ذلك الوطن لنعود إليه؛ لأن ذلك الوطن لا خوف فيه ولا قلق ولا مرض ولا اضطراب، ولكنها جنات ونهر في مقعد صدق عن مليك مقتدر.

هذه بعض اللمسات على الأوطان، وقد بكى الشعراء وتفجعوا على أوطانهم وهم يُخرجون، حتى إنني رأيت أول بيت في الأغاني لأبي فرج الأصبهاني أول الأبيات، يقول: إن أحد الموالى طُرد من المدينة، طرده أمير المدينة إلى الشام فبكى لما نظر إلى نخل المدينة وتذكر مراتع الصبا في المدينة وتذكر زملاءه وأصدقاءه وأحابيه، وسار إلى أبواب جيرون وجيرون هي دمشق بالرومية، قال:

النَّخْلُ وَالْقَصْرُ وَالْجَمَاءُ بَيْنَهُمَا      أَشْهَى إِلَيَّ النَّفْسِ مِنْ أَبْوَابِ جِيْرُونَ

يقصد النخل والبئر، والجماء مزرعة لسعيد بن أبي العاص وسعيد بن أبي العاص في المدينة والبئر بئرهم في المزرعة والقصر قصر بناه هناك، فيقول: يا ليت لي القصر والبئر والجماء بينهما، فذلك أشهى إلى النفس من أبواب جيرون، أحسن عندي من أبواب دمشق لكني أصبحت غريباً. فالغريب يحن إلى أوطانه إذا نُفي من الوطن، والنفي من الوطن أصعب شيء على النفس ومن أشقاه؛ لأنك تذهب عن إخوانك وتذهب عن أترابك لما ألفتهم وأنستهم، تذهب عن أشياء ارتبطت بها وأصبحت جزءاً من حياتك وذاكرتك، فأنت لا تتخلى عنها بسهولة، فيُصبح حكماً بالإعدام الغيابي على هذه الروح التي تحملها.

وأنت تتذكر هذا الوطن الذي كنت تعيش فيه، فالواجب أن يحسن إلى الوطن بأن يكون عضواً صالحاً في وطنه، يحمل المعتقد الحق والكلمة الطيبة ويدعو إلى الفضيلة، ويشارك في بناء وطنه ويذب عنه العدوان، ويجتمع مع إخوانه على كلمة الحق: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. ويكون وفياً لوطنه، والحقيقة أن أوطان المسلمين يجب أن تُقدَّر جميعاً.

وَكَلِّمًا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ فِي بَلَدٍ      عَدَدْتُ ذَاكَ الْحِمَى مِنْ صُلْبِ أَوْطَانِي

وقد قال بعضهم:

أَنَا الْحِجَازُ، أَنَا نَجْدٌ، أَنَا يَمَنٌ      الْجَنُوبُ بِهَا دَمْعِي وَأَشْجَانِي

وهذا أبو تمام يشكو من أنه لم يستقر في وطن واحد، فهو مشرد، مرة يذهب يمدح هذا، ثم يرده هذا إلى ذلك، ومرة يطرده الوالي إلى والٍ آخر، فيقول:

فِي الشَّامِ أَهْلِي وَبَغْدَادَ الْهُوَى وَأَنَا بِالرَّقْمَتَيْنِ وَبِالْفُسْطَاطِ جِيرَانِي

يقول: إني معذب ومشتت، ولكن يجتمع قلب الإنسان إذا كان مع ربه ﷻ. فإن كان مع الله كان الله معه، أنسه من وحدة وآواه من غربة وأطعمه من جوع وأغناه من فقر ونصره من قوة وأعزه من ذلة.

وقد قرأت عن موسى ﷺ كما في كتب السير أنه لما نزل في أرض مدين أوى إلى الشجرة، بعدما كشف الغطاء للفتاتين وسقى لهما أغنامهما، فقال: يا ربِّ أنا فقير، يا ربِّ، أنا غريب، يا ربِّ أنا جائع، يا ربِّ أنا ضعيف. فأوحى الله إليه: يا موسى، الغريب من لم أكن أنا مؤنسه، والجائع من لم أكن أنا مطعمه، والفقير من ألم أكن أنا مغنيه، والضعيف من لم أكن أنا مقويه. ورؤي عن يوسف ﷺ أنه لما أُلقي في الجب كان وحده، فأنزل الله ﷻ عليه السكينة، فأخذ يسبح الله ﷻ فجعله الله على صخرة في الجب الذي فيه ماء فأنقذه ﷻ ورده وأصبح ملكاً وتولى وطناً.

وَحَبِيبَ أَوْطَانِ الرِّجَالِ إِلَيْهِمْ  
مَعَاهِدُ قَضَائِهَا الشَّبَابُ هُنَالِكَ  
إِذَا ذَكَرُوا أَوْطَانَهُمْ ذَكَرْتَهُمْ  
عُهُودُ الصِّبَا مِنْهَا فَحَنُوا لِذَلِكَ



## الوقت

الوقت هو العمر والوقت هو الحياة، والوقت هو المتكون من الدقائق والثواني التي تمر بك. ولذلك يقول ﷺ: «قَلَّ كَمَّ لَيْتَمُ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعَادِينَ (١١٣)». [المؤمنون: ١١٢ - ١١٣]. فهو يسألهم ﷺ حتى عن الوقت وعن العمر، وصح عنه ﷺ أنه قال: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ». وذكر: «عُمُرُهُ فِيمَا أَبْلَاهُ». يسأل عن عمره فيما صرفه، وعند البخاري: «نِعْمَتَانِ مَغْبُوءٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالْفُرَاغُ». فالوقت

تكلم عنه الشعراء والحكماء على أنه كنز للتجارب وفعل للخير وإسدال المعروف ونفع الآخرين، حتى إن أبا تمام في أبيات جميلة لخص تجربته مع الوقت والأيام، يقول:

مَرَّتْ سِنِينَ بِالسُّعُودِ وَبِالْهِنَا      فَكَأَنَّهَا مِنْ قِصْرِهَا أَيَّامٌ  
ثُمَّ انْتَبَتْ أَيَّامٌ هَجْرَ بَعْدَهَا      فَكَأَنَّهَا مِنْ طُولِهَا أَعْوَامٌ  
ثُمَّ انْقَضَتْ تِلْكَ السِّنِينَ وَأَهْلُهَا      فَكَأَنَّهَا وَكَأَنَّهُمْ أَحْلَامٌ

هذا هو الوقت. ولذلك يقول شوقي:

دَفَاتُ قَلْبِ الْمَرْءِ قَائِلَةٌ لَهُ:      إِنَّ الْحَيَاةَ دَقَائِقٌ وَثَوَانٌ

أي: إذا رأيت القلب يبيض فكأنه يُدَكِّرُك، فيقول: انتبه مضت ثانية، والثانية الثانية، وهكذا. هذه الثانية لن تعود، فقد اقتربت من النهاية، حصلت لحظة من عمرك، وهكذا. وهذا من أجل أبيات شوقي:

فَارْفَعْ بِنَفْسِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ ذِكْرَهَا      فَالذِّكْرُ لِلْإِنْسَانِ عُمُرَتَانِ  
وهذا صحيح، والمنتبهي يقول:  
ذِكْرُ الْفَتَى عُمُرُهُ الثَّانِي وَحَاجَتُهُ:      مَا قَاتَهُ وَفُضُولِ الْعَيْشِ أَشْغَالُ

فيقول: ذِكْرُكَ كأنه عمر لك ثانٍ. أي: العمر الْحَسَنُ. مطلوب منك أن تسعى في حياتك بأعمال جليلة؛ حتى تُذكر بعد موتك، لوزهد أحد بالثناء لزهدي إبراهيم الخليل عليه السلام ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]. أي: اجعل لي ثناء حسناً فيذكرني الناس بالخير ويترحمون علي. لأن الناس شهود الله في أرضه؛ إن أشوا عليه خيراً فهو خير وإن أشوا عليه شراً فهو شريراً، لأنهم شهود، السنة الخلق أفلام الحق، فهنا يقول:

ذِكْرُ الْفَتَى عُمُرُهُ الثَّانِي وَحَاجَتُهُ:      مَا قَاتَهُ وَفُضُولِ الْعَيْشِ أَشْغَالُ

فالحاجة فقط هي القوت، وما زاد عن كفايتك وحاجتك فهو إشغال يضيع العمر، وذكر الجاحظ في كتابه (الحيوان) أن السلطان السعدي يقول: أوقاتي هي العمر.

أَشَابَ الصَّغِيرَ وَأَفْنَى الْكَبِيرَ كَرُّ الْغَدَاةِ وَمَرُّ الْعَشِيِّ

اليوم والليل أفنى الكبير وشيب الصغير الطفل، فليلة ويوم وليلة ويوم وإذا الشباب شيوخ كبار، وإذا الأطفال شباب وإذا الشيوخ في المقابر، ويوم وليلة وإذا الدول تنتهي ﴿هَلْ تُحْسِنُ مِنْهُمْ مَنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٤٩٨]. كم تصبِّح هذه الليالي وتصبِّح علينا، الشمس تُشرق وتغرب وهي من أعمارنا تنقص.

إِذَا لَيْلَةٌ هَرَمَتْ يَوْمَهَا (١) أَتَى بَعْدَ ذَلِكَ يَوْمٌ فِتِي

تنتهي ليلة ويأتي يوم جديد، اليوم والليلة جديدان، نموت وتنتهي وهما جديدان.

نُرُوحٌ وَنَغْدُو لِحَاجَاتِنَا وَحَاجَةٌ مِّنْ عَاشٍ لَا تَنْقُضِي

ما دمت حياً فلك حاجة كل يوم ولك غرض، وللنفس تطلعات وآمال ومطالب.

تَمُوتُ مَعَ الْمَرْءِ حَاجَاتُهُ وَتَبْقَى لَهُ حَاجَةٌ مَا بَقِيَ

أحد الصالحين يقول لصاحبه: ألا تزورنا؟ قال: أشغلنا عن الزيارة. فأخذه مرة وذهب به إلى المقبرة، فقال: انظر، إن هؤلاء ماتوا كلهم ولهم أشغال. لكن عطلت أشغال، أي: ما عندهم سابق إنذار بهذا. ولذلك قال بعضهم:

إِذَا كَانَ رَأْسُ الْمَالِ عُمْرَكَ فَاحْتَرِسْ عَلَيْهِ مِنَ التَّضْيِيعِ فِي غَيْرِ وَاجِبٍ

(١) أي: أنهت اليوم.

رأس المال العمر، فإذا كان هذا العمر هو رأس المال، فلا تضيعه في غير واجب، والشافعي - رحمه الله - يقول: رافقت الصوفية فما استفدت منهم إلا قولهم: الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك.

وقيل لرجل: الوقت أغلى من الذهب. فقال: بل الوقت هو الحياة. لأنك في الدقيقة الواحدة قد تصنع شيئاً كثيراً ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]. تُقرأ في دقيقة، سبحان وبحمده مئة مرة تُقرأ في دقيقة، صفحة من كتاب علم أو معرفة تُقرأ في دقيقة، كلمة صادقة طيبة ينفع الله بها، تتصل بأخيك المريض تعزيه في دقيقة، هذه الدقيقة تصنع بها مجداً وتبني لك بها تاريخاً، تقدم حسنات تعرس في الجنة شجرات، لكن المشكلة أن الإنسان إذا ما أخذ كلام أهل العلم وأهل الحكمة وأهل الأدب واستفاد به بحال، إنما يحمله فقط كما قال **عمر بن الخطاب**: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥]. مجلدات ومصنفات على ظهر الدابة لا تستفيد منها، ولذلك ينبغي إعمال ما تسمعه من الحكمة وما تسمعه من الأدب ومن الشعر، حتى يقول:

مَا مَضَى فَاتٌ وَالْمَوْمِلُ غَيْبٌ      وَلَكَ السَّاعَةُ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا

فالماضي انتهى عفا الله عما سلف، تلك أمة قد خلت، وأنت مع الماضي هب أنك أغلقت عليه في زناينة النسيان، والمؤمل غيب: فالذي يأتيك غداً هو ليس في يدك، ولا تستطيع أن تضمنه، ولكن لك هذه الساعة التي أنت فيها، فازرع الخير.

وقد قرأت عن الأديب الشاعر المشهور شكسبير يقول - يوصي صديقه -: يا صديقي، الخير الذي تفعله سوف يُثنى عليك به، والشر الذي تفعله سوف يُدفن معك في قبرك. وأحسن من ذلك قول سيد الخلق **ﷺ** فيما يُروى عنه لما قال لقيس بن عاصم: «يَا لَيْسَ، إِنَّ مَعَكَ قَرِينًا تُدْفِنُ مَعَهُ وَهُوَ حَيٌّ وَيُدْفِنُ مَعَكَ وَأَنْتَ مَيِّتٌ». هو العمل.

فمن أراد أن يحسن عمله، فليحسن صرف الوقت فيما ينفع، وفيما يفيد، وفيما يعلي قدره.

وقد قال عليه السلام: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالْفُرَاغُ». لأن كثيراً من الأصحاء مشغولون وكثيراً ممن يملكون الوقت مرضى، لكن أن يجتمع لك الصحة والفرغ فأمر عَجَب، ولذلك تجد شاباً صحيحاً غير مشغول ولا يعمل خيراً، الآن ترى الشمس تجري لمستقر لها، والرياح تتحرك والنسيم يهب والقافلة تسير والليل يطوي النهار وأنت لماذا تقف؟ لا وقوف في العالم ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدر: ٣٧]. لا وقوف فيما أن تتقدم أو تتأخر، فلن يجديك أن تبقى تفكر، امش على نظام ولو على نظام السلحفاة، فإنك سوف تسبق الثعلب الذي وقف.

وقد قيل: الغزال التي وقفت تنظر، هل الفهد يطاردها أو لا، فانقطعت عن السلحفاة وسبقتها السلحفاة. نحن بحاجة إلى إعادة ترتيب لقراءة الأدب، وأدبنا هو أدب الحكمة وأدب المعرفة وأدب الرشاد أدب المثل العليا، ليس أدب النوائض الذي يدرسه في بعض المدارس، قال جرير يهجو الفرزدق وقبيلته وقال الفرزدق يرد عليه، أو داحس والغبراء؛ قالت هذه القبيلة في تلك، تغلب في بكر وبكر في تغلب حتى يورثوا الضعائين بين الأحياء وبين القبائل والعشائر. أدبنا ينطلق من قول حسان رضي الله عنه:

|                                       |   |
|---------------------------------------|---|
| فَإِنْ أَبِي وَوَالِدُهُ وَعِرْضِي    | لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءُ       |
| هَجَوْتُ مُبْرَأً لَا عَيْبَ فِيهِ    | رَسُولُ اللَّهِ شَيْمَتُهُ الْوَفَاءُ     |
| أَتَهْجُوهُ وَلَمَسْتَ لَهُ بِكُفٍّ ۝ | فَشَرُّكُمْ مَا لِحَيْرِكُمَْا الْفِدَاءُ |

ينطلق مع أبيات الحكمة التي تعلمنا، فكل ما دلك على الفضيلة فهو فاضل في نفسه ينبغي الاعتناء به، وكل ما تحاول أن تقترب به من الشر والرذيلة فإنه يُلغى سواء أكان نشرًا أم شعرًا، ولذلك نحن بحاجة لحجر صحي فكري على

أذهان الجيل والشباب؛ لتلا يحفظوا بعض اللوثات الفكرية التي نثت بها بعض المرضى، فأثرت في أدينا وجعلته كأنه الأدب العربي في بعض ملاحظه، وإنما هورذيلة وعداوة وشر وبغضاء وغدر، وانسلال هذه القبيلة على الأخرى وإرافة دماء وتشويهه، فهناك صور مشرقة لا بد من أن تُظهِرَها للناس وأن نحكيها، وأنا أعرف من القصص الرائقة الأدبية الجميلة ومن الأبيات التي فيها من المرورة ومن العزة ومن الأنفة، حتى الأدب الجاهلي تقرأ فيه عن عفة النفس وعن الكرم والسماحة، مثل قول حاتم الطائي:

وَمَا أَنَا بِالسَّاعِي بِفِضْلِ جِامِهَا      لِنَتَشْرَبَ مَاءَ الْحَوْضِ قَبْلَ الرُّكَّابِ

فانظر إلى هذا؛ يقول: أنا لا أوثر نفسي على صاحبي، والله حتى فرسي لا أسابق بها حتى تشرب ماء الحوض قبل أن تأتي الخيول الأخرى. يقول: فليسبقوني هم حتى يشربوا الماء.

وعروة بن حزام مرَّ به شخص سمين بدين وكان عروة نحيفاً، فضحك منه السمين، فقال:

أَتَهْزَأُ مِنِّي أَنْ سَمِنْتَ وَأَنْ تَرَى      بَوَجْهِ شُحُوبِ الْحَقِّ وَالْحَقُّ شَاهِدُ

يقول: يأكل معي على السفرة أناس، أنا أوزع طعامي على الجيران، وأنت تأكل وجبة وحدك، تغلق الباب إذا كنت تأكل.

إِنِّي امْرُؤٌ عَافِي إِذَا نَسِيَ شِرْكَتَهُ      وَأَنْتَ امْرُؤٌ عَافِي إِذَا نَأَى وَاحِدُ  
أَتَهْزَأُ مِنِّي أَنْ سَمِنْتَ وَأَنْ تَرَى      بَوَجْهِ شُحُوبِ الْحَقِّ وَالْحَقُّ جَاهِدُ  
أَفْسَمُ جِسْمِي فِي جُسُومِ كَثِيرَةٍ      وَأَحْسُو قَرَّاحَ الْمَاءِ وَالْمَاءُ بَارِدُ

يقول: أنا عندي شركاء في الأكل وأستضيف وأخذ ولذلك نُحِفُ جسمي وضعفت بنيتي، وأنت تأكل وحدك فأنت سمين فالواجب أن تهزأ بنفسك لا تهزأ

بي. هذه مثل عليا، فكيف يوم جاء محمد ﷺ وأقام سنن العدل والنور والإيمان، ووصل بها إلى الواحد الأحد حتى يقول ﷺ: «مَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ زَادَ فَلْيُعِدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ ظَهَرَ فَلْيُعِدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهَرَ لَهُ». حتى البسمة جعلها صدقة ﷺ إلى درجة أن زهير يقول في الجاهلية لِهَرَم:

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَدِّلاً      كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ

يقول: وأنت تطليه شيئاً، فكأنك أنت الذي تعطيه المال؛ من التهلل ضحك السن. أما الغضوب والعبوس، فإنه مذموم، حتى قال أحدهم:

وَجُوهٌ مِنْ سَوَادِ الْكِبْرِ عَابِسَةٌ      كَأَنَّمَا أوردت غَضْباً إِلَى النَّارِ  
هَانُوا عَلَى اللَّهِ فَاسْتَاءَتْ مَنَاظِرُهُمْ      يَا وَيْحَهُمْ مِنْ مَنَاكِيدٍ وَقَجَارِ  
لَيْسُوا كَقَوْمٍ إِذَا لاقَيْتَهُمْ عَرْضاً      أَهْدُوكَ مِنْ نُورِهِمْ مَا يُنْتَحَفُ السَّارِي  
مَنْ تَلَقَى مِنْهُمْ تَقَلُّ: لاقَيْتُ سَيِّدَهُمْ      مِثْلَ النُّجُومِ الَّتِي يَسْرِي بِهَا السَّارِي

فهؤلاء أهل الرقة أهل الإيمان أهل المبادئ العالية، الذين يحفظون أوقاتهم فيما يقربهم لله ﷻ، فأنت لا تصرف وقتك إلا في حق أو في خير، فالوقت دمار، أو عمار إما لك أو عليك، وسوف تُسأل عن هذا وعن هذا فازرع ما شئت من الخير تجده، وزارع الحنظل سوف يحصده وسوف يذوقه مرأً علقماً يوم العرض الأكبر عند الله ﷻ، وهل أقيمت الصلوات إلا في الوقت ودُفعت الزكوات وأُغفي عن الناس، ونُشرت المعرفة وأُطعم المساكين وأُديت الحقوق وعولج المرضى إلا في الوقت؛ لأن الوقت مزرعة، وهل سُفكت الدماء واعتدي على الحرمات وانتَهكت المقدسات إلا في الوقت، فالوقت ظرف زمني، لكنه للأبرار جنة وللأشرار نار، فعليك أن توجهه فيما يصلح قلبك، من يوم أن تستفيق في الصباح اعرف أنه يُعد عليك وأنه يُحصى عليك، أقلام تكتب وملائكة تشهد وصحف ترتفع، فتهيأ وتجهز للقدوم عليه ﷻ، ودائماً تذكر أن مع دقة القلب دقة الساعة، فدقات الساعة تقول للقلب: لقد أخبرتنا أن صاحبه يمضي في الطريق، وأنه سوف يمضي قريباً.

ذَقَاتُ قَلْبِ الْمَرْءِ قَائِدَةٌ لَهُ: إِنَّ الْحَيَاةَ ذَقَائِقُ وَثَوَانٍ

فما هي الثواني؟ تُؤلف الدقيقة من ثوانٍ، والساعة من دقائق، واليوم من ساعات، والأسبوع من أيام، والشهر من أسابيع، والسنة من أشهر، والعمر من سنوات، حتى تلقى رب الأرض والسموات.

سئل أحد الناس: كم عمرك؟ قال: والله ما أذكر من عمري إلا هذه الساعة فقط. حتى إن أبا الطيب المتنبى يقول:

قَدْ ذُقْتُ شِدَّةَ أَيَّامِي وَلِدْتَهَا فَمَا حَصَلْتُ عَلَى صَعْبٍ وَلَا عَسَلٍ

يقول: إني ذقت الأيام كلها حلوها ومرها، لكن ما في يدي شيء الآن، أتأمل أين اللذائذ؟ ولا لذائذ، أتأمل المصائب ولا مصائب، أتأمل النكبات فكأن لا نكبات، ما بقي عندي من آثار العسل وحلاوة الأيام التي مرت، وما بقي عندي من الصعب العلقم الذي مرُّبي.

كم مرة مرت بنا أزمات صارت ذكريات لا كم ذقنا من أيام سعيدة وأفراح ومباهج الحياة ونعمها لو سُئِلت عنها ما تحسها، وقد لقيت عالماً كبيراً فسألته: ما تذكر من علمك يا شيخ؟ قال: ما أذكر شيئاً، هذه اللحظة التي أنت بين يدي، كأنني وُلدت من جديد والله مرت بي أيام طويلة وجميلة ما أذكر شيئاً ومرت بنا صعوبات ما أذكر شيئاً. فقط لك الساعة التي أنت فيها، ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها، فعلياً أن نمضي هذه الساعة في عمل صالح.

وأنا أرى أن من أراد أن يحفظ وقته فعليه بالتنوع؛ فإنه أدعى لنشاط النفس، فمرة قراءة ومرة تسييح ومرة نفع للناس ومرة ترويح عن النفس، ومرة إيصال الخير إلى الآخرين، عيادة مريض ومواساة منكوب وإعطاء فقير ومسح رأس يتيم، طلب معرفة، قراءة كتاب، ركعتان بخشوع، تدبر، بر والدين وأعمال خير،

هذه مرزعة الحياة فأين الزارعون؟! هذا بستان الخيرات فأين البادرون؟! هذا سلم المجد، فأين الصاعدون، فأين الصاعدون؟! هذه صحف المثل العليا، فأين الكاتبون؟! فيا أيها الناس، هذا وقتكم قُدِّم لكم، لكنه من طريق الشعراء.

وكما أوصوا بالوقت وأوصوا بالنزمن فإن الشعراء أيضاً شاركوا في صياغة الحكمة؛ لأنه كما قال **عَلِيٌّ**: «وَأَنَّ مِنَ الشَّعْرِ لِحِكْمَةٌ». فلنأخذ حِكْمَةَ الشعراء حكمة الأدب، يقول أبو تمام:

عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَقَضَاءُ فَإِنِّي رَأَيْتُ كَرِيمَ الْحُرِّ لَيْسَ لَهُ عُمُرُ

يقول في محمد بن حميد، الذي قُتِلَ وَعَمَّرَهُ (٣٢ سنة)؛ ما لك عمر لكك سجَّلت عمراً طويلاً من المجد؛ لأنه قُتِلَ في سبيل الله. دائماً عمر الكريم قصير؛ كأنه ما عاش في الناس، يقولون: ليتنا أعطيناها من أعمارنا، يا ليتنا جدنا له من أوقاتنا، ليته أطلال الإقامة معنا، لكنه ينتهي سريعاً. حتى إنهم يقولون: ما كأنه عاش بين أظهرنا من عمره. أما الشديد فطويل عمره، يقولون: متى يقصف الله روحه؟ أثقلنا وأتعبنا وما أطول عمره! نسأل الله الرحمة والعافية.





## ساعة الصفر

ساعة الصفر عند المعاصرين هي ساعة الموت وساعة النهاية، وهذه الساعة لا بد من أن يمر بها كل واحد، وفي ساعة الموت يضعف القوي ويذعن الجبار ويستسلم المتكبر ويفتقر الغني، والعلماء والحكماء والأدباء والشعراء لهم كلمات في ساعة الصفر؛ لأن زيف النفس انتهى وانتهى الغرور والعجب والكبرياء وانتهى واستسلم، فيقولون الكلمات الصادقة إما بيتاً أو كلمة أو جملة، ولذلك يروى عن الشافعي أنه لما انطرح للموت وذكر الله، قال:

وَلَمَّا قَسَا قَلْبِي وَضَاقَتْ مَدَاهِبِي      جَعَلْتُ الرَّجَا - رَبِّي - لِعَفْوِكَ سُلْمًا  
تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي فَلَمَّا قَرَنْتُهُ      بعفوك - ربّي - كان عفوك أعظمًا

ثم توفّي بعدما شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ، وهناك محدث كبير من أجلّ المحدثين من الشمال كان في عهد أحمد بن حنبل اسمه أبو زرعة الرازي، أتوه في سكرات الموت، فأرادوا أن يلقنوه: لا إله إلا الله. فاستحيا منه طلابه فأرادوا أن يذكروا سند الحديث: «مَنْ كَانَ آخِرَ كَلَامِهِ مِنَ الدُّنْيَا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، دَخَلَ الْجَنَّةَ». فما استطاعوا، واستيقظ بعدما كان معمى عليه أو في غفوة فقال: حدثنا فلان عن فلان عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ كَانَ آخِرَ كَلَامِهِ مِنَ الدُّنْيَا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، دَخَلَ الْجَنَّةَ»، ثم مات. ومالك بن الريب الذي سجل أروع قصيدة في ساعة الصفر، قصيدة رائعة مؤثرة، أرى أن ليس في الأدب العربي مثلها في مسألة الحنين وصدق العاطفة والوضوح والشفافية في ساعة الموت، بعدما كان من قُطّاع الطريق ويسرق - غفر الله له - ثم تاب وأتاب، ومر به عثمان بن عفان رضي الله عنه مجاهدًا مع جيشه، فدخل معهم وذهب إلى خراسان مجاهدًا في سبيل الله، وفي الطريق لدغته حية فحفروا قبره وألقى قصيدة ما يقارب (٦٠ بيتًا) على شفير القبر، قال:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أُبَيْتَنُ كَيْلَةً      بِجَنْبِ الْغُضَى أُرْجِي انْقِلَاصَ النُّوَاجِيَا  
فَلَيْتَ الْغُضَا لَمْ يَقْطَعْ الرُّكْبُ عَرْضَهُ      وَكَيْتَ الْغُضَا مَا شَى الرُّكَابَ لِيَالِيَا  
وَلَيْتَ الْغُضَا يَوْمَ ارْتَحَلْنَا تَقَاصَرَتْ      بِطُولِ الْغُضَا حَتَّى أَرَى مِنْ وَرَائِيَا  
أَلَمْ تَرِنِي بَعْتُ الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى      وَأَصْبَحْتُ فِي جَيْشِ ابْنِ عَمَّانَ غَازِيَا  
فَلَيْلِهِ دَرِي يَوْمٍ أَتْرَكُ طَائِعَاً      بِنِيِّ بِأَعْلَى الرُّقْمَتَيْنِ وَمَالِيَا  
وَأَشْقَرُ مَحْبُوكٍ يَجْرُ عِمَادَهُ (١)      إِلَى الْمَاءِ لَمْ يَتْرُكْ لَهُ الْمَوْتَ سَاقِيَا

(١) يعني فرسه.

يُقَادُ ذَلِيلًا بَعْدَمَا مَاتَ رَبُّهُ      يُبَاعُ بِبَخْسٍ بَعْدَمَا كَانَ غَالِيَا  
وَلَمَّا تَرَاعَتْ عِنْدَ مَرَوْ مَنِيَّتِي      وَخَلَّ بِهَا جِسْمِي وَحَانَتْ وَفَاتِيَا  
خُدَانِي فَجَرَانِي بِبُرْدِي إِلَيْكُمَا      فَقَدْ كُنْتُ قَبْلَ الْيَوْمِ صَعْبًا قِيَادِيَا

إلى آخر ما قال، فكلها صدق وكلها تشبيك أن الإنسان يذهب عنه الطلاء وقت الحقيقة، فإذا أصبح في سكرات الموت انتهى كل شيء؛ لأن أكثر لحظة يمر بها الإنسان لحظة ضعف ولحظة صدق هي لحظة سكرات الموت التي سوف نمر بها جميعاً، حتى إن أبا نواس الأديب الشاعر المشهور يقول في سكرات الموت- عسى الله أن ينفعه بذلك:-

إِنْ كَانَ لَا يَرْجُوكَ إِلَّا مُحْسِنٌ      فَبِمَنْ يَلُودُ وَيَسْتَجِيرُ الْمُجْرِمُ  
مَا لِي إِلَيْكَ وَسِيْلَةٌ إِلَّا الرَّجَا      وَجَمِيْلٌ عَفْوِكَ ثُمَّ إِلَيَّ مُسْلِمٌ

وقالوا في السير والأدب: إن ابن عباس دخل على معاوية رضي الله عنه الملك الخليفة، فلما رآه ابن عباس «وهوفي سكرات الموت أراد أن يظهر لابن عباس» أنه ما زال شيطناً، لأن ابن عباس «ابن عم علي رضي الله عنه غفر الله للجميع ورضي عنهم جميعاً» قال معاوية رضي الله عنه:

وَتَجَلْدِي لِلشَّامَتَيْنِ أَرِيَهُمْ      أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعُّعُ  
قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ «فِي الْحَالِ»:      وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا  
أَلْفَيْتِ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ

وهي من القصيدة نفسها، فدل على أن الإنسان قد يتجلد، حتى إن ابن تيمية لما دخلوا عليه قالوا: ماذا أصابك يا أبا العباس؟ وهوفي مرض خطير، قال:

تَمُوتُ النُّفُوسُ بِأَوْصَابِهَا      وَلَكُمُ يَسْدِرُ عَوَادُهَا مَا بِهَا  
وَمَا أَنْصَفَتْ مُهْجَةً تَشْتَكِي      إِذَاهَا إِلَيَّ غَيْرِ أَحْبَابِهَا

هذا على حد قول المتنبّي:

إِنْ كَانَ سَرْكُكُمْ مَا قَالَ حَاسِدُنَا فَمَا لِحَرْحِ إِذَا أَرْضَاكُمْ أَلَمْ

فهو التجلد والصبر مثل قول النابغة لبني جعدة:

سَقَيْنَاهُمْ كَأْسًا سَقَوْنَا بِمِثْلِهَا وَلَكِنَّا كُنَّا عَلَى الْمَوْتِ أَصْبِرَا

يقول: لما تلاقينا، والأعداء قاتلونا وقتلناهم وسقونا الموت وسقيناهم، وشربنا من كأسهم وشربوا من كأسنا، ولكننا كنا على الموت أصبر منهم. فهو التجلد على تلك الساعة ساعة الصفر وساعة الحقيقة، ولذلك يقول رضي الله عنه عن الأولياء: ﴿ وَلَا تَهْوُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ ۗ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٤]. أي: إن كنتم تألمون - أيها الصحابة والمؤمنون - من مقاتلة الكفار فهم يألمون مثلكم، لكنكم تزيدون بأنكم ترجون الثواب والنعيم والجنة وهم لا يرجون شيئاً، وهذا الذي يعزي الناس، ولما حضرت ساعة الصفر في مؤتة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله قال تلك القطعة الرائدة الجميلة:

يَا حَبِيبًا الْجَنَّةُ وَاقْتِرَابُهَا طَيِّبَةٌ وَيَسَّارِدُ شَرَابُهَا  
الرُّومُ رُومٌ قَدْ دَنَا عَذَابُهَا كَافِرَةٌ بَعِيدَةٌ أَنْسَابُهَا  
عَلَيَّ إِنْ لَاقَيْتُهَا ضِرَابُهَا

وقيل رضي الله عنه وهذه الكلمة أثبتتها بفعله، فالشعر يصدق خبر العبد أو يكذبه، وأتى ابن رواحة رضي الله عنه بعده وقال:

أَقْسَمْتُ - يَا نَفْسِي - لَتَنْزِلَنَّهُ أَقْسَمُ النَّاسِ وَأَتَسَدُّ ظَنَّهُ  
مَا لِي أَرَاكَ تَكْرَهِيَنِ الْجَنَّةَ هَلْ أَنْتِ إِلَّا نَقْطَةٌ فِي شَنَّةِ

وقاتل وَقْتَلَ رضي الله عنه وَقْتَلَ رضي الله عنه قتلهم زيد بن حارثة رضي الله عنه ودخلوا ثلاثتهم جنات النعيم على أسرة من ذهب جمعنا الله رضي الله عنه بهم.

ورماح بن حكيم يقولون: إنه قُتِلَ في المعركة، وكان يتمنى الشهادة. حتى إنه يقول قبل الموت:

أَيَا رَبِّ لَا تَجْعَلْ وَفَاتِي إِنْ أَتَيْتُ عَلَى مَضْجَعٍ يَعْلُوهُ حُسْنُ الْمَطَارِفِ

يقول: أسألك - يا رب - لا تميتني في غرفة النوم على فرش وثيرة ومخدات ووسائد.

وَلَكِنْ شَهِيداً دَاوِياً فِي عَصَابَةٍ يُصَابُونَ فِي فَجٍّ مِنَ الْأَرْضِ خَائِفٍ

إِذَا فَارَقُوا أَوْطَانَهُمْ فَارَقُوا الْأَذَى وَسَارُوا إِلَى مَوْعُودِ مَا فِي الصَّخَائِفِ

أي: ما في القرآن مما وعدهم الله رضي الله عنه من الجنة.

وأذكر أن محدثاً كبيراً اسمه: أبو بكر الباغندي. محدث كبير مشهور بعلم الحديث، ومن علامات حسن سيرة العبد أن يحب: حدثنا فلان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا، أو المحدث يقول حدثنا، أخبرنا.

الْعِلْمُ مَا قَالَ فِيهِ: قَالَ: حَدَّثَنَا وَمَا سَوَى ذَلِكَ وَسَوَّاسُ الشَّيَاطِينِ

يقوله بعض السلف، فيقولون: إنه كان في سكرات الموت فسمع شاباً أو طفلاً يقول: حدثنا فلان. وهولا يدري أن الباغندي في سكرات الموت، والباغندي حياته كلها حديث، قال: أسندوني. فأسندوه، قال:

سَقُونِي وَقَالُوا: لَا تُغْنِ. وَلَوْ سَقُوا جِبَالَ سُلَيْمَى مَا سَقِيَتْ لَغَنَّتِ

وهذا الشعر لأحد شعراء العرب يقول: إنهم أسقوه خمراً وطرب، ثم سمع قصيدة وطلبوا منه ألا يرفع صوته، فرفع صوته وعقيرته بالنشيد، فقال:

سَقُونِي وَقَالُوا: لَا تُغْنِنِي. وَلَوْ سَقُوا جِبَالَ سُلَيْمَى مَا سَقَيْتُ لَغْنَتِ

فهنا يقول المحدث: أنتم سمعتموني شيئاً هزني وحرك مشاعري وشجوني. وهو علم الحديث الذي أفنى فيه عمره، فقام في تلك الساعة وقال هذا البيت المشهور.

وأحد العلماء مرض وفي مرض الموت كان متكئاً ويقول: لا إله إلا الله، لا إله إلا الله، لا إله إلا الله. وهي كلمة الحق وأصدق كلمة في العالم وأحسن كلمة وأجمل كلمة، حتى إنني رأيت في بعض الأحاديث يروى: «إِذَا قَالَ الْعَبْدُ فِي الْأَرْضِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. قَالَ اللَّهُ فِي السَّمَاءِ: صَدَقَ عَبْدِي؛ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا». وعند ابن حبان «قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا رَبِّ، عَلَّمَنِي كَلِمَةً أَدْعُوكَ بِهَا...». وكان موسى عليه السلام جريئاً وشجاعاً وصاحب أسئلة «قَالَ: يَا مُوسَى! قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. قَالَ: يَا رَبِّ! كُلُّ النَّاسِ يَقُولُونَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. قَالَ: يَا مُوسَى، لَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي كِفَّةٍ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي كِفَّةٍ مَالَتْ بَهَنَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ». فهذا العالم كان يقول: لا إله إلا الله، لا إله إلا الله. فسمع رجلاً آخر يقول: لا إله إلا الله. قال:

وَدَاعِ دَعَا إِذْ نَحْنُ بِالْخَيْفِ مِنْ مَنَى فَهَيْجَ أَشْوَاقِ الْبِلَادِ وَمَا نَدِرِي  
دَعَا بِاسْمِ لَيْلَى غَيْرَهَا فَكَأَنَّمَا أَطَارَ بِلَيْلَى طَائِرًا كَانَ فِي صَدْرِي

يقول: وهذا ذكرني أيضاً وأعانني على ذكره ﷺ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]. لأن أعظم شيء في هذه اللحظة هو ذكره ﷺ، وابن تيمية سئل سؤالاً ذكره تلميذه ابن القيم في (روضة المحبين) قال لابن تيمية: يقول الله ﷻ: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِتْنَةً فَاتَّبِعُوا وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]. كيف يأمرهم وقت القتال وهو وقت خوف وقلق واضطراب وهم مشغولون ويأمرهم

بذكره رضي الله عنه؟ قال ابن تيمية: لأن المحبين كانوا يتشرفون بذكر محبوبهم وقت الأزمات وفي مصالوة الأعداء، أما سمعت عنبرة يقول لمحبيته:

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالرِّمَاحُ نَوَاهِلُ      مَنِي وَبَيْضُ الْهَيْدِ تَقَطَّرُ مِنْ دَمِي  
فَوَدِدْتُ تَقْبِيلَ السُّيُوفِ لِأَنَّهَا      لَمَعَتْ كَبَارِقِ تَغْرِكِ الْمُتَبَسِّمِ

فأله رضي الله عنه أمرهم في وقت القتال ومصالوة الأعداء وفي سكرات الموت بذكره رضي الله عنه، فهذا قصده، ولذلك في تلك اللحظة تجد الإنسان إذا تجرد وقرب من لقاء الله رضي الله عنه تجد عنده من الصدق، لا أن يرائي ولا أن يطلب مدح الناس وسمعة الناس؛ لأنه علم أن الحياة منصرمة، وأن الحق قد وصل، وأن الموت قد حصل، ولذلك أحدهم كان يسبح، ثم نظر فقال:

إِذَا مَرِضْنَا تَدَاوَيْنَا بِذِكْرِكُمْ      وَنَتْرُكُ الذِّكْرَ أَحْيَانًا فَتُنْتَسِئُ

ذكر ابن رجب الحنبلي أن أحد الصالحين كان لا يكف لسانه من ذكر الله، لأنه رضي الله عنه يقول لرجل لما سأله عن عمل يتشبه به قال: «لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ». وعند أحمد في المسند «أذْكَرُ اللَّهِ حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ إِنَّكَ مَجْنُونٌ». هذا فيه كلام في السند، لكن الشاهد أن يتمم كالموسوس، فقال له أحدهم: أنت مريض؟ قال:

وَمِنْ هِيَامِي بِكُمْ قَالُوا: بِهِ مَرَضٌ      فَقُلْتُ: لَا زَالَ عَنِّي ذَلِكَ الْمَرَضُ

وهذا مثلما ذُكِرَ في سيرة موسى عليه السلام لأنه لما أرسله ربه هو وأخاه هارون عليهما السلام إلى فرعون قال: ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي﴾ [طه: ٤٢]. أي: لا تتعبا في الذِّكْرِ، وواصل التسييح. لأنه يقول تعالى: ﴿كَيْ سِحِّكَ كَثِيرًا ۖ وَنَذْرِكَ كَثِيرًا﴾ [طه: ٣٣-٣٤]. فقال: ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي﴾، فدخل موسى يتمتم: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. قال له أحد الحراس: أمجنون أنت؟

عندي دواء المجانين. وهذا مما يذكر في سيرته عليه السلام قال: جئت أعالج مجانين في القصر لديكم. الطاغية الأكبر الذي طغى وبغى وأخذته عليه السلام، فهذه لحظة الصدق مع الله ﷻ التي قالها الأولياء وصدقوا فيها.

حتى إنني رأيت منهم مثل معاذ رضي الله عنه في ساعة الصفر وفي ساعة الموت يقول: «اللَّهُمَّ، إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي مَا أَحْبَبْتُ الْحَيَاةَ لِعَرْسِ الْأَشْجَارِ وَلَا لِحَرْبِ الْأَنْهَارِ، وَلَا لِعِمَارَةِ الدُّورِ وَالْقُصُورِ، وَلَكِنْ أَحْبَبْتُ الْحَيَاةَ لِمُجَالَسَةِ أَقْوَامٍ يَنْتَقُونَ أَطْيَابَ الْكَلَامِ كَمَا يَنْتَقَى طَيْبُ التَّمْرِ، وَأَنْ أَصُومَ يَوْمًا شَدِيدَ الْحَرِّ فِي سَبِيلِكَ، وَأَنْ أَقُومَ الثَّلَاثَ الْأَخِيرَ مِنَ اللَّيْلِ». أو كما قال رضي الله عنه.

ويقول حذيفة رضي الله عنه: «مَرَّحِبًا بِالْمَوْتِ حَبِيبٌ مِّنْ جَعَلَهُ آفَاقَهُ، لَا أَفْلَحَ مَن نَدِمَ». وقال بعض الصالحين في ساعة الصفر في ساعة الموت: اللهم إنني كنت أخافك، وأما الآن فأرجوك. فهذه هي اللحظة الحاسمة.

وشوقي يقول في الساعة هذه:

قَدْ يَضِيقُ الْعُمُرُ إِلَّا سَاعَةً      وَتَضِيقُ الْأَرْضُ إِلَّا مَوْضِعًا

هذا قاله في جبل التوباد الذي يقول فيه المجنون:

أَجْهَشْتُ لِلتُّوبَادِ حِينَ رَأَيْتُهُ      وَكَبَّرْتُ لِلرَّحْمَنِ حِينَ رَأَيْتِي

فيقول شوقي:

جَبَلُ التُّوبَادِ حَيَّاكَ الْحَيَا      وَسَقَى اللَّهُ صِبَانًا وَرَعَى  
فِيكَ نَاعَيْنَا الْهُوَى فِي مَهْدِهِ      وَرَضَعْنَاهُ فَكُنْتُ الْمُرْضِعَا  
هَذِهِ الرِّيْوَةُ كَانَتْ مَلْعَبًا      لِشَبَابِنَا وَكَانَتْ مَرْتَعَا  
كَمْ بَنَيْنَا فِي حَصَاهُ أَرْبَعًا      فَانْتَنَيْنَا وَمَحَوْنَا الْأَرْبَعَا

## ساعة الصفر

وَكَتَبْنَا فِي نَقْيِ الرَّمْلِ قَلَمٌ      تَحْفَظُ الرِّيحُ وَلَا الرَّمْلُ وَعَى  
قَدْ يَضِيقُ العُمُرُ إِلَّا سَاعَةً      وَتَضِيقُ الأَرْضُ إِلَّا مَوْضِعًا

فهذه ساعة الصفر ينبغي أن تُعدوا لها بلا إله إلا الله، محمد رسول الله ﷺ، قالوا لأحد الصالحين: ماذا أعددت لها؟ قال: أعددت لها كلمة التوحيد التي لو وُزنت بالسموات والأرض لمالت بهن وهي لا إله إلا الله، محمد رسول الله ﷺ، ساعة الصفر سوف نمر، ونحن في مقياس ينزل بنا درجة درجة، حتى نصل إلى تلك الدرجة الحاسمة التي ينتهي بها العمر، ونبدأ حياة أخرى.





## المصطفى

الصديق مؤنس ومؤيس؛ لأنه يخفف عنك  
الأحزان ويعينك على حمل الأثقال، ويساعدك  
على طاعة الله ﷻ ويدلك على الخير وينصحك  
ويسدّدك ويذب عن عرضك، هذا إذا كان صادقاً،  
أما إذا كانت صداقة مجاملة في الظاهر فهذا  
ضرره أعظم. وإنما يعنينا الصديق الصادق  
الصدوق الذي يكون معك في الضراء والسراء،  
حتى إن الله الواحد الأحد يقول: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ  
بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].  
وعلي عليه السلام يقول: «تَزَوَّدُوا مِنَ الْإِخْوَانِ فَإِنَّهُمْ عَزٌّ

فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. قَالُوا: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فِي الدُّنْيَا عَرَفْنَا ذَلِكَ فَكَيْفَ فِي الْآخِرَةِ؟ قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ ﷻ: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾. فدل على أن الأخ الخليل الصديق المتقي ينفك حتى في الآخرة، فقد يشفع الصديق الصالح الصادق لصديقه إذا كانوا على أصل من التوحيد والإيمان، وكانوا يحذرون من الصديق المخادع المجامل الذي صداقته للمنفعة المنقطعة الدنيوية. يقول أحد الشعراء:

أَحْذَرُ عَدُوَّكَ مَرَّةً      وَاحْذَرُ صَدِيقَكَ أَلْفَ مَرَّةٍ  
فَلَرُبَّمَا انْقَلَبَ الصَّدِيقُ      فَكَانَ أَوْلَى بِالْمَضَرَّةِ

فهم يجمعون الحياة، فقد كان بعض الأخيار إذا رأى إخوانه قال: مرحباً بالإخوان الذين يذهبون الأحزان. حتى يقول إيليا أبو ماضي:

أَحْبَابُنَا، مَا أَجْمَلَ الدُّنْيَا بِكُمْ      لَا تَفْبُحِ الدُّنْيَا وَفِيهَا أَنْتُمْ

هذا إذا كانوا مُسْعِدِينَ وكان الواحد منهم موافقاً وكان سهل الخلق، كما يقول ابن المبارك:

وَإِذَا صَحِبْتَ الدَّهْرَ فَاصْحَبْ مَا جِئْتَ      دَا عَفَافٍ وَحَيَاءٍ وَكَرَمٍ  
قَوْلُهُ لِلشَّيْءِ: لَا. إِنْ قُلْتَ: لَا.      وَإِذَا قُلْتَ: نَعَمْ. قَالَ: نَعَمْ.

فهذه مدرسة الإخاء؛ أن تكون كثير الموافقة إلا فيما حرم الله، سهلاً ميسراً تقبل الرأي الآخر تحترم وجهات النظر، تراعي صاحبك، فلا تكون أنانياً تحب ذاتك أكثر من إخوانك، حتى يقول ابن المبارك:

إِذَا صَاحَبْتَ قَوْمًا أَهْلَ وِدِّ      فَكُنْ لَهُمْ كَذِي الرَّحِمِ الشَّفِيقِ  
وَلَا تَأْخُذْ بِزَلَّةِ كُلِّ قَوْمٍ      فَتَبْقَى فِي الزَّمَانِ بِلا رَفِيقِ

ومن اللطائف أن بعضهم على حديث: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أُصِلَ مَنْ قَطَعَنِي،  
وَأَنْ أَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَنِي، وَأَنْ أُعْطِيَ مَنْ حَرَمَنِي». حتى يقول أبو تمام:

إِذَا مَرِضْنَا أَتَيْنَاكُمْ نَعُودُكُمْ      وَتُدْنِبُونَ فَنَأْتِيَكُمْ وَنَعْتَبِرُ

فدائماً البادئ بالجميل وسائر عشرات الإخوان والذاب عن أعراضهم هو  
الموفق في الدنيا والأخرى.

وأبو تمام أيضاً يصف الإخاء فيقول:

إِنْ كِيدَ بَيْنَ إِخْوَانِنَا فَإِنَّنَا      نَعْبُو وَنَسْرِي فِي إِخْوَانِ تَالِدِ

يقول: إذا تعرضنا إخواننا وصادقنا لهزات، فإنني سوف أثبت، لن أتأثر  
بكلمات تنقل عن صديقي أو حسد حساد أو كلام مبغضين.

أَوْ يَخْتَلِفُ مَاءُ الْغَمَامِ فَمَاؤُنَا      عَذِبٌ تَحْدَرُ مِنْ غَمَامٍ وَاحِدِ  
أَوْ يَفْتَرِقُ نَسَبٌ يُؤَلِّفُ بَيْنَنَا      دِينٌ أَقْمَنَاهُ مَقَامَ الْوَالِدِ

هو يقول: أدب أقمناه مقام الوالد. فبيننا من جسور المحبة ومن نقاط  
الاتفاق ما الله به عليم.

الشافعي - رحمه الله - اختلف مع صديق له في مسألة، قال: ألا يمكن أن  
نتفق، أو أن نتحاب أنا وأنت وإن اختلفنا في مسألة أو مسألتين أو ثلاث أو أكثر؟  
بلى لأننا نتفق في أمور كثيرة مما نعمل. حتى إن أحدهم تذمر من أخيه؛ لأن بعض  
الإخوة والأصدقاء إذا كان له عندك حاجة أحبك وتقرب منك وزارك، وإذا انتهى  
من حاجته طار فلم تره، يقول:

أَنْتَ أَخِي إِنْ كَانَ فِي النَّفْسِ حَاجَةٌ      فَإِنْ لَمْ تَكُنْ أَيُّضَتْ أَلَا أَخَا لِيَا  
فإني غني عن أخيه حياته      وَنَحْنُ إِذَا مِتْنَا أَشَدُّ تَعَانِيَا

يقول في القصيدة ومن أجمل الأبيات:

فَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ      كَمَا أَنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبَدِّي الْمَسَاوِيَا

والناس يصدرون عن عواطف وعن أهواء وعن مواقف مستعجلة ومرجلة لا عن  
حكمة، ولذلك فإن الذي مدحه باقٍ وذمه باقٍ هو الله ﷻ إذا أثنى أو أحب ﷻ، أما  
الناس فهم على حسب المصالح، حتى إن أحدهم يقول:

وَرَهْدُنِي فِي النَّاسِ مَعْرِفَتِي بِهِمْ      وَطُولُ اخْتِبَارِي صَاحِبًا بَعْدَ صَاحِبٍ  
فَلَمْ تُرِنِّي الْآيَامُ خِلَا تُسِرُّنِي      مَبَادِيهِ إِلَّا سَاءَنِي فِي الْعَوَاقِبِ  
وَلَا قُلْتُ: أَرْجُوهُ لِكُشْفِ مُلِمَّةٍ      مِنْ الدَّهْرِ إِلَّا كَانَ إِحْدَى الْمَصَائِبِ

فهذا بعد تجربة لأن أكثر الناس لا يذكرون، أكثرهم لا يفون بعهد الصداقة  
وميثاق الشرف والأخوة، وأكثرهم وقت الضوائق لا يأتون ووقت الأزمات ووقت  
المشكلات إنما هم وقت الرخاء ووقت المصالح والنفع، يثبتونه أو يريدونه حتى  
يحققوه، ثم يذهبون ولا تجد أحداً.

وفي الصداقة والإخوة الأوفياء يأتون بأبيات طفيل الغنوي التي استشهد  
بها أبو بكر الصديق ﷺ في سقيفة بني ساعدة لما اجتمع الأنصار يظنون أن  
الخلافة فيهم، فبيّن لهم أبو بكر الصديق ﷺ الحق في ذلك وأنصتوا له، ثم  
شكر الأنصار على مواقفهم الرائعة المجيدة بنصرة الرسول ﷺ وبنصرة الدين،  
قال: «وَاللَّهِ - يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ - مَا مَثَلْنَا وَمَثَلَكُمْ إِلَّا كَمَا قَالَ طُفَيْلُ الْغَنَوِيِّ:

جَزَى اللَّهُ عَنَا جَعْفَرًا حِينَ أَرْلَقْتَ      بِنَا نَعْلُنَا فِي الْوَاطِنِينَ فَرَلْتِ  
هُمُ خَالِطُونَا فِي النُّفُوسِ وَالْجُؤُورِ      إِلَيَّ غُرَفَاتٍ أَدْفَأَتْ وَأَظْلَمَتْ  
أَبُوا أَنْ يَمْلُونَا وَلَوْ أَنَّ أَمْنَا      تُلَاقِي الَّذِي يَلْقُونُ مِنَّا لَمَلَّتِ  
وَقَالَتْ: هَلُمُّوا الدَّارَ حَتَّى تَبِينُوا      وَتَنْجِدِي الْعَمِيَاءَ عَمَّا تَجَلَّتِ

وَمِنْ بَعْدِمَا كُنَّا لِسَلْمَى وَأَهْلِهَا      قَطِيناً وَمَلَّتْنَا الْبِلَادُ وَمُلَّتْ  
سَجَزِي بِإِحْسَانِ الْأَيْدِي الَّتِي مَضَتْ      لَهَا عِنْدَنَا مَا كَبُرَتْ وَأَهْلَتْ

فالصديق دائماً تجده يواسي، يريد أن يقع التعب والعتب عليه لا عليك. تجده في خدمتك. حتى إن من أعظم الخدمة خدمة الصديق وخدمة الضيف، والرجل لا يأنف من ذلك حتى إن المقنع الكندي يقول:

وَإِنِّي لَعَبْدُ الضَّيْفِ مَا دَامَ نَازِلاً      وَمَا شَيْمَةٌ لِي غَيْرَهَا تُشْبَهُ الْعَبْدَا

فمن أحسن صفات المؤمن أنه يباشر الضيف ويرحب ويقدم الطعام بنفسه، وهذا أعلى ذوقاً وأعلى ويدل على كرم المعدن وطيب الأصل وعلى ارتفاع الهمة أن تخدم ضيفك، وهذا من الشرف العظيم الذي كانوا يتبارون فيه.

فهذا أمية بن أبي الصلت التقفي من الطوائف نزل على أصدقائه في مكة، فأكرموه وواسوه، جاء الطوائف عام فحط وجذب وسنة مجعفة، انقطعت الأمطار فنزل عند أهل مكة فرحبوا به وحيوه وأنزلوه عند آل جدعان؛ لأن خاله عيد الله ابن جدعان الذي يقول هو فيه:

أَذْكَرُ حَاجَتِي أَمْ قَدْ كَفَانِي      حَبَاؤُكَ إِنْ شَيْمَتَكَ الْحَبَاءُ  
إِذَا أَتَيْتُ عَلَيْكَ الْمَرْءُ يَوْمًا      كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ الثَّنَاءُ

يقول: نُعْرِضُ لَكَ بِالسَّأَلَةِ فَيَأْتِي الْعَوْنُ مَبَاشِرَةً وَيَأْتِي الْإِكْرَامُ دُونَ تَأْخِيرٍ، فهو يمدح أصدقاءه بعدما واسوه، فقال:

لَا يَنْكُتُونَ الْأَرْضَ عِنْدَ سُؤَالِهِمْ      لِتَطَلُّبِ الْأَعْدَارِ بِالْعِيدَانِ

يقول: إذا أتيت تطلب منهم حاجة، قالوا سريعاً: أبشر، تم. لكن البيخيل ينكت الأرض بالعيدان يذهب يُخَطِّطُ ويرسم له خرائط من أجل الأعذار والمخارج

فيقول: تعال غداً. الكريم يُنجز والبخيل يعد، مهما تأته لا تجده، فيقول أبناؤه:  
خرج؛ مريض. أي: مرض من فاجعة الخير. فيقول:

لَا يَنْكُتُونَ الْأَرْضَ عِنْدَ سُؤَالِهِمْ      لَتَطْلُبِ الْأَعْدَاءُ بِالْعِيْدَانِ  
بَلْ يُشْرِفُونَ وَجُوهَهُمْ فَتَرَى لَهَا      عِنْدَ السُّؤَالِ أَحْسَنَ الْأَلْوَانِ  
وَإِذَا الْغَرِيبُ أَقَامَ وَسَطَ رِحَالِهِمْ      رَنُوهُ رَبُّ صَوَاهِلِ وَقِيَامِ

يُكرمونه إلى درجة أنهم يعطونه جوارى، ويعطونه خيولاً.

وَإِذَا دَعَا الدَّاعِيَ لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ      سَدُّوا شُعَاعَ الشَّمْسِ بِالْفُرْسَانِ

ووقت الشجاعة إذا دعاهم داعي الحرب يخرجون مع الشمس ويسدون شعاع  
الشمس بخيولهم، فهذا من الصداقة.

ومن الصداقة والصديق أن أحد المحدثين كان يُحَدِّثُ فِي خِرَاسَانَ فِي مَجْلِسِ  
حَدِيثٍ، وَقَدْ كَانَ لِلْمُحَدِّثِينَ مَجَالِسَ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ طُلَابَهُمْ عَشْرَةَ آلَافِ طَالِبِ  
عِلْمٍ، وَمِنْهُمْ أَكْثَرُ وَمِنْهُمْ أَقَلُّ، فَنَظَرَ ابْنَ الْأَعْرَابِيِّ وَهُوَ مُحَدِّثٌ لِعَوِي كَبِيرٍ صَاحِبِ  
أَدَبٍ وَبَيَانٍ، فِإِذَا صَدِيقَانِ فِي مَجْلِسِ الْحَدِيثِ يَتَحَدَّثَانِ، قَالَ لِأَحَدِهِمَا: مَنْ أَيْنَ  
أَنْتَ؟ قَالَ: مِنَ الْأَنْدَلُسِ. وَقَالَ لِلْآخَرِ: وَأَنْتَ؟ قَالَ: مِنْ خِرَاسَانَ. قَالَ: سَبِحَانَ اللَّهِ!  
أَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمُ اللَّهُ، أَنْتَ مِنَ الْأَنْدَلُسِ وَأَنْتَ مِنْ خِرَاسَانَ، اكْتُبُوا اكْتُبُوا. قَطَعَ  
الدرس واستشهد بأبيات؛ لأنه أديب وسريع بديهة وحضره الأديب، فقال:

نَزَلْنَا عَلَى قَيْسِيَّةٍ يَمْنِيَّةٍ      لَهَا نَسَبٌ فِي الصَّالِحِينَ هَجَانِ  
وَقَالَتْ وَأَلْقَتْ جَانِبَ السِّتْرِ بَيْنَنَا:      بِأَيَّةِ قَوْمٍ أَمْنِي الرِّجَالِ  
فَقُلْتُ لَهَا: أَمَّا تَمِيمٌ فَأَسْرَتِي      فُدَيْتِ وَأَمَّا صَاحِبِي فَيَمَانِي  
رَفِيقَانِ شَتَى أَلْفَ الدِّينِ بَيْنَنَا      وَقَدْ يَلْتَقِي الشَّتَى فَيَجْتَمِعَانِ

وهذا من أحسن الأبيات، فيقول: الإسلام ألف بيننا وجمعنا. ﴿ وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأففال: ٦٣].

كان عليه السلام محمد القرشي الهاشمي يجلس مع بلال الحبشي وسلمان الفارسي وصهيب الرومي، كلهم تحت مظلة ﴿إِنَّا كُنَّا نَعْبُدُ وَإِنَّا كُنَّا نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فابن الأعرابي استشهد بهذه الأبيات.

وفي مجالس الحديث التي كان يحضرها كثير من طلاب العلم، حتى يقول أحد المحدثين، وكان شاعراً:

إِنِّي إِذَا اخْتَوَشْتَنِي أَلْفٌ مَحْبِرَةٌ يَكْتُبُنْ: حَدَّثَنِي طَوْرًا وَأَخْبَرَنِي

يقول: إذا اجتمعت علي ألف محبرة وألف طالب علم يحملون المحابر، وأصبحت قريبة مني واجتمعوا مرة يكتبون: حدثني فلان وأخبرني.

نَادَيْتُ فِي النَّاسِ وَالْأَقْلَامُ حَافِلَةٌ تِلْكَ الْمَكَارِمُ لَا قَعْبَانَ مِنْ لَبِنِ

هذا نص بيت لأمية بن أبي الصلت يقول:

تِلْكَ الْمَكَارِمُ لَا قَعْبَانَ مِنْ لَبِنِ شَيْبًا بِمَاءِ قَعْبَادًا بَعْدُ أَبْوَالًا

فالصداقة تبنى على المصارحة وعلى المحبة وهي على المشاكلة، يقول عليه السلام: «الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، مَا تَعَارَفَ مِنْهَا انْتَلَفَ، وَمَا تَنَافَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ». ولذلك إذا تحابب إنسانان فإنهما من قرب روح هذا من هذا، وبعضهم وإن كان صادقاً، لكنك لا ترتاح له، فابحث لك عن صديق ورفيق ترتاح له، طبائعه تقارب طبائعك؛ إذ يمكن أن تكون فيك دعاية وخفة دم وتحب النكتة وطيب القلب فيوافقك في هذه الصفات، لكن يأتيك رجل زميت ومتشدد في أخلاقه قاسٍ لا يصلح لك، ولكن يصلح مع رجل آخر مثله، وفي الصالحين من هو صارم حازم في أموره، وهذا ما يُعطِل المصالحة معه من جانب.

الإسلام يتسع للجميع، بشرط أن يكون على المنهج الصحيح منهج الرسول ﷺ، فيتسع الإسلام للرجل القريب السهل المزروح خفيف الظل، ويتسع الإسلام للتاجر الكبير الذي له أموال طائلة يؤدي حق الله، ويتسع للفقير الذي لا ينام إلا على الرصيف، ويتسع الإسلام للعالم الكبير الرباني وللمتعلم أو العامي، وللمجاهد وللزاهد وللعابد وللأمير وللوزير وللمنفق وللشباب، وللمرأة وللفيلسوف وللکاتب وللصحفي، هذا دين عظیم دين عالمي يتسع للجميع ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ مَوْ مُولِيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٤٨]. يقول: أنتم مواهب واستعدادات لكن ابنوا، كلکم تؤسسون في حضارة الإسلام وسوف تصلون ما دام قصدكم الحق، ولكن قصدي من ذلك تدمر وتفلت الأصدقاء واختلاف بعض الأصحاب. ولا يجمع الناس شيء كالأيمان بالله ﷻ والعمل بكتابه وبسنة نبيه ﷺ حتى يكونوا على كلمة سواء.

